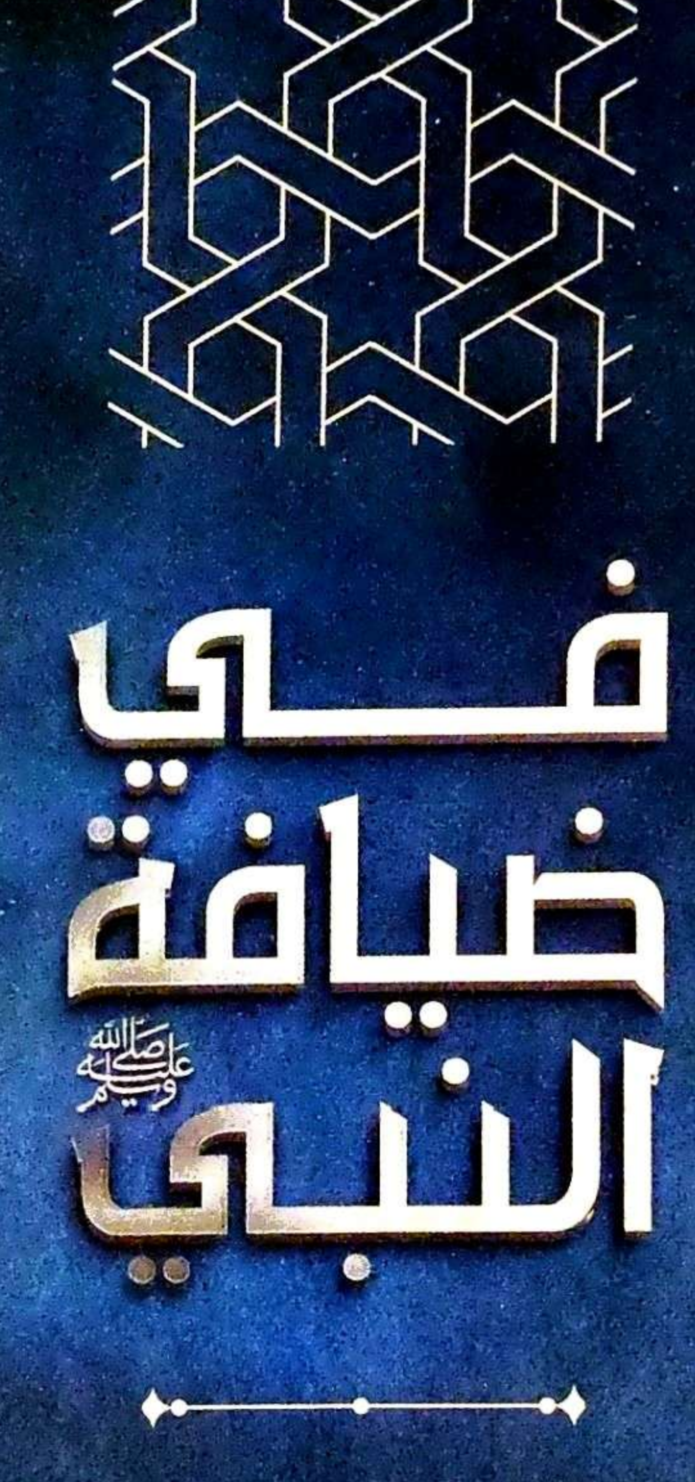


وضاح خنفر

في ضيافة النبي

في ضيافة النبي

وضاح خنفر



جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

في ضيافة النبي/ وضاح خنفر.

١٥٧ص.

ISBN 978-614-431-755-6

١. الإسلام ـ تاريخ.

٢. محمد ـ النبي.

297

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢١

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت

josour.pub@gmail.com

المحتويات

مقدمة

الصراع حول الإسلام.. بوادر انبعاث جديدة

كُتِبَت فصول هذا الكتاب والعالم يعبر لحظة انتقال عصيبة هي الأهم في الذاكرة البشرية المعاصرة؛ فيها تخوض البشرية جائحة كورونا بكل مراراتها وتداعياتها، وتعيش أزمة اقتصادية تتعمّق وتتسارع مع الزمن، وتشهد تغيّرًا استراتيجيًا في موازين القوة بين الغرب والشرق، وما يرافقه من تدافع وتطاحن، ونتابع تصاعد خطاب اليمين المتطرّف، وما يرافقه من خطاب كراهية يطال الإسلام ورموزه في دول أوروبية، كان أكثرها فجاجةً فرنسا التي هتفت يومًا بقيم الحرية والعدالة والمساواة، ونرقب في هذه اللحظة كذلك محاولات استئصال وإبادة للمسلمين في دول آسيوية لم تُعرَف من قبل بشراستها ضد المسلمين. أما واقعنا العربي فيزيده التشرذم ضياعًا وخيبةً، وتغرق مجتمعاتنا في هموم اللحظة الخانقة، بينما تنغمس أنظمتنا في خصومات مع الشعوب، فتزيد الواقع بؤسًا وضياع أمل.

لكن هذه اللحظة لا تحمل العُسر فقط، بل تحمل معها اليُسر كذلك، فهي تمثّل نهاية حقبة في التاريخ الإنساني؛ حقبة التسيّد الغربي ومركزيته الوضعية المادية، وكل النهايات عصيبة، لذلك

تتسارع هجرة الناس فيها صوب المستقبل، باحثين عن أفق رحب جديد، وهذا هو الأفق الذي نظنّه على وشك أن يولد، وقد بدأنا بالفعل نتلمّس بوادر انبعاثه، وأولها القلق المعرفي الذي ينتشر هذه الأيام في أوساط الشباب على وجه الخصوص، ومع أن هذا القلق مُتعب وعصيب، إلا أنه ضروري لمسيرة بحثٍ جادة على طريق الانبعاث.

في حالات الانتقال هذه نحتاج إلى أن نستنفر كل مخزوننا المعرفي ونستحضر تجاربنا التاريخية، وننفتح على أجندات حوار أصيلة وجريئة، تنفتح على الواقع وتنتمي إلى قيمنا الجامعة، ومعها روح من التسامح عالية، لأننا في سعينا لتصوّر الجديد سوف نصيب ونخطئ، وخوفنا من عواقب الخطأ سيدفعنا إلى أن ننكفئ ونتخندق، تصوّر الجديد يعني أن نفتح أبوابًا للتجديد والإبداع والابتكار، وأن نتحرّر من القيود التي كَبّلْنا بها عقولَنا في أزمنة الضعف والعجز والخوف.

هنا ندق باب المعلم الأول، ونلتمس في ثنايا سيرته ما يعيننا على تصوّر هذا الجديد، ذلك أنه عندما بُعثَ خاتمًا للنبيين أُعلم أنه رسول للناس كافة وأنه رحمة للعالمين، أي أن تصرّفاته وإن تفاعلت مع الواقع التاريخي في بدايات القرن السابع الميلادي، إلا أن منهجه عابر للزمن، متجاوز للوقائع.

هذا الكتاب جولة في الواقع وفي المنهج: الواقع الذي أوصلنا إلى هذه اللحظة التاريخية، والمنهج الذي قدّمه لنا آخر رسل السماء إلى الأرض.

وضاح خنفر

٨ نيسان/ أبريل ٢٠٢١

«الانقلاب الاستراتيجي».. كيف صنع الإسلام أوروبا؟

الحقيقة التي أودُّ أن أبدأ بها هي أن عالمنا المعاصر صَنَعته أوروبا.

لا نستطيع أن نحسم لحظة البداية للعالم الحديث، ولكنني أختار مؤتمر فيينا عام ١٨١٥م الذي انعقد بعد الحروب النابليونية؛ لأنه أسَّس لفكرة الاستقرار ونواة العمل الأوروبي المشترك، وقد أثَّر ذلك تأثيرًا مباشرًا في عالمنا الإسلامي؛ لأن الدول الأوروبية بدأت تسعى سعيًا حثيثًا لوراثة الدولة العثمانية التي كانت تتراجع تدريجيًا، وهو الهدف الذي تحقَّق بالفعل بعد مائة عام عندما تفكَّكت الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

نحن نعرف أن أوروبا هي التي صنعت واقعنا الاستراتيجي والسياسي، ولكن مَن الذي صنع أوروبا؟

في الحقيقة لا أتردَّد في القول بأن الذي صنع أوروبا استراتيجيًا هو الإسلام.

لماذا؟

إن أوروبا عبر تاريخها تستند إلى تراثٍ إغريقيٍّ رومانيٍّ، أو لنقُل تستند إلى تراثٍ إغريقيٍّ فلسفيًّا وإلى تراثٍ رومانيٍّ استراتيجيًّا وسياسيًّا، فقد تشكَّل الوعي الاستراتيجي عبر الإمبراطورية الرومانية التي تصدَّرت القوى العالمية قرابة ١٥٠٠ عام، وأصبحت خلالها القطب الأهمَّ في السياسة الدولية، وقد شكَّلت الدولة الرومانية هذه المعياريةَ السياسية للفكر الغربي؛ ولذلك أصبحت متضمنةً بشكلٍ تلقائيٍّ في الذهنية الغربية وصولًا إلى عصرنا الحاضر.

وقد كان تراثها الذي امتدَّ لـ ١٥٠٠ عام ذا أثرٍ بالغٍ في الوعي الاستراتيجي الأوروبي تحديدًا، وفي مفهوم السياسة عمومًا، وهو تأثير تعدَّى أوروبا إلى بقية أرجاء العالم، في معياريته ورمزيته على الأقل.

لا شكَّ أن بروز الإسلام ـ بوصفه ظاهرةً استراتيجيةً مفاجئةً ـ بدأ بمحاصرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، مؤذنًا بصراعٍ استمرَّ قرونًا طويلة حتى حُسِمَ الأمر للإسلام بشكلٍ نهائيٍّ.

في الثاني عشر من ديسمبر عام ٦٢٧م، حدث ما يلي: استطاعت الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) بقيادة هرقل أن تهزم الدولة الفارسية في معركةٍ حاسمةٍ اسمها معركة نينوى، وهي المعركة التي أدت ـ في نهاية المطاف ـ إلى حسم الحرب الدولية البيزنطية الفارسية لحساب القسطنطينية، وكان من المفترض بعد انهيار الإمبراطورية الفارسية ـ القطب الدولي الأعظم في ذلك الزمن ـ أن تتبوَّأ القسطنطينية السيادةَ العالمية دون منازع، وتشكِّل موازين القوة الدولية وفقًا لمصالحها، وتعيد استرداد الأراضي الأوروبية التي خسرتها الدولة الرومانية القديمة للقبائل الجرمانية. لقد كان من المتوقَّع أن تبعث القسطنطينيةُ ألقَ روما من جديد.



«من حروب الفرس مع الروم»

لكن المفاجأة التي لم تكن بحسبان هرقل ولا بحسبان أحدٍ من أمراء أوروبا أنه، وبعد ست سنواتٍ فقط ـ في أغسطس من عام ٦٣٦م ـ، ستهزم جيوش المسلمين في معركة اليرموك بقيادة خالد بن الوليد جيوشَ الروم هزيمةً ساحقةً.

لم تكن الإمبراطورية الرومانية تحسب للقبائل العربية أيَّ حسابٍ استراتيجيٍّ، إلَّا ما تعلَّق بكفِّ هجمات الأعراب على الأراضي الواقعة تحت الهيمنة البيزنطية طلبًا للغزو والمغنم. أما أن يكون العرب قوةً استراتيجيةً هائلةً تهزم الجيش الأعظم في العالم، فإن ذلك لم يكن بحسبان أحد.

لقد خسرت الدولة البيزنطية بعد اليرموك بلاد الشام ثم مصر، وهي خسارة بالغة الأثر، فقد كانت الشام أرض الصراع الدامي لوقت طويل بين الإمبراطوريتَيْن البيزنطية والفارسية، أما مصر فكانت سلّة قمح القسطنطينية، وروما من قبلها، وخسارة كلٍّ من المنطقتَيْن المطلتَيْن على البحر المتوسط ـ الذي كان يُسمَّى بحر الروم ـ ستؤسِّس لنفوذٍ إسلاميٍّ في أهمِّ نطاقٍ استراتيجيٍّ في عالم يومئذ، وهو البحر المتوسط. فما اكتمل ذلك القرن حتى أصبح البحر المتوسط بحراً إسلامياً.

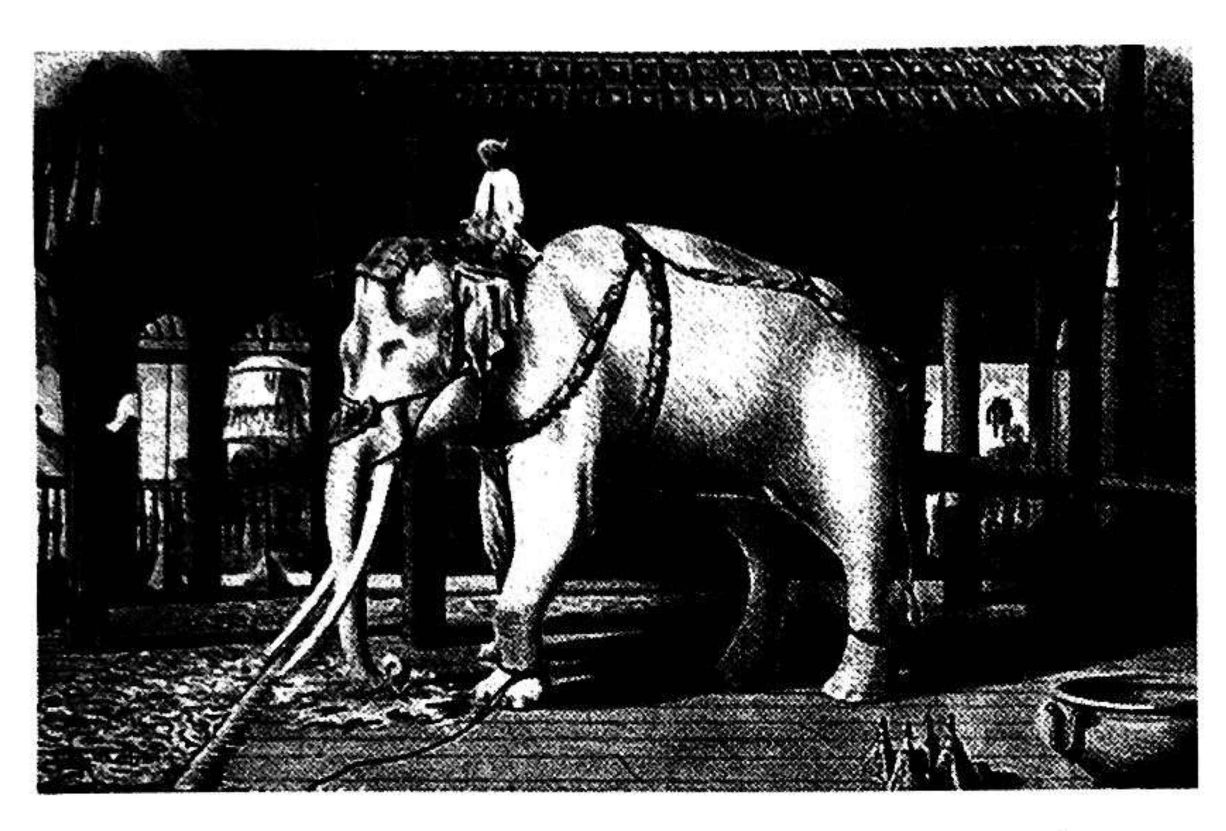
لم يكن البحر المتوسط في ذلك الوقت في مثل مكانته هذا اليوم. نعم، هو مهمٌّ حاليًّا وما زال الصراع مستمرًّا عليه، لكنه في ذلك الوقت كان هو الأهم عالميًّا، وكان الصراع الدولي يتمحور على المتوسط. فالذي يملك المتوسط وقتها يتحكَّم في طرق التجارة، ويهيمن على قلب العالم القديم. وقد استطاع المسلمون - في فترةٍ وجيزةٍ جدًّا - أن يُسيطروا على شمال أفريقيا وعلى بلاد الشام المُطِلة على البحر المتوسط، ومن ثَمَّ بدأ البحر المتوسط سريعًا يصبح بحرًا إسلاميًّا.

«بحرٌ مُسلم وحراكٌ غير مسبوق».. أبو أوروبا يُواجه المسلمين!

في عام ٨٠٠م كانت الدولة العباسية تُسيطر على العالم الإسلامي، وكان خليفة بغداد في ذلك الوقت هو هارون الرشيد. وفي ذلك العام اضطرت أوروبا أن تبدأ حراكًا غير مسبوقٍ نحو التوحُّد، وهو ما يعتبره المؤرخون بداية القرون الوسطى، وكان العامل الأهم في فكرة الوحدة هو مواجهة الخطر الإسلامي الزاحف. ومن ثَمَّ تأسَّست الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة بقيادة شارلمان، ملك الإفرنج.

لقد درسنا في كتب التاريخ أن كلًّا من شارلمان وهارون الرشيد كانا على وفاق، وأنهما تبادلا الرسائل والهدايا. وهذا أمر صحيح، ولكن كان سبب ذلك استراتيجيًّا بامتياز، فعندما أهدى هارون الرشيد إلى شارلمان فيلًا - اسمه أبو العباس - كان يرمي إلى تعزيز الهوَّة بين الإمبراطورية الرومانية الغربية والإمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية؛ ذلك أن الرشيد كان يطمح إلى فتحها، وهو بذلك يودُّ أن يعمق العلاقة مع شارلمان كي يحقِّق هدفه. أما شارلمان، فكان هو الآخر حريصًا على علاقة حسنة مع هارون الرشيد؛ ذلك أن

عدوَّه الأول هو الدولة الأموية في الأندلس، وهي عدو مشترك لكلٌ من الطرفين، الأوروبي والعباسي.



يُعَدُّ شارلمان أبا الفكرة الأوروبية؛ لأنه جمع الأوروبيين بعد تناحرٍ شرسٍ، ووظَّف في ذلك الخوفَ من المسلمين وفتوحاتهم التي بدأت تحاصر أوروبا في البر والبحر.

لقد كانت الأندلس في ذلك الوقت في أَوجِ قوتها، وتحاول أن تتوسَّع شمالًا. ومن ناحية ثانية، كانت كلُّ سواحل المتوسط الجنوبية - التي كانت تاريخيًّا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية - تحت حكم العباسيين المسلمين.

وقد وصف ابن خلدون - الذي عاصر تلك المرحلة - البحر المتوسط بأنه بحر إسلاميٌّ، لدرجة أنه لا يمكن للنصارى أن يبعثوا بطَوفٍ من الخشب فيه دون إذنِ المسلمين.

لقد أدرك شارلمان أن الوسيلة الوحيدة لتوحيد أوروبا وإماراتها

المتصارعة هي التخويف من الخطر الإسلامي الداهم، وقد نجح في ذلك بالفعل. وتعود العلاقة الودِّيَّة مع الدولة العباسية - ومع هارون الرشيد تحديدًا - إلى أسبابٍ سياسية وجيو - سياسية، وليس لأسبابٍ تتعلَّق بشخصية الزعيمَيْن في ذلك الوقت. فلم يكن شارلمان ينظر إلى الدولة البيزنطية الأرثوذكسية - عدو العباسيين المباشر - نظرةً وديَّةً، ولم يكن هارون الرشيد ينظر إلى الدولة الأموية في قرطبة - عدو شارلمان المباشر - نظرةً وديَّةً كذلك. وفي المقابل، كان على كلٍّ منهما أن يمدَّ يَدَ الصداقة للآخر طمعًا في تحقيق مغانم استراتيجية مشتركة.

«لولا محمَّد لم يكن شارلمان».. متى صدَّت أوروبا النفوذ الإسلامي المتصاعد؟

لقد تشكَّلت أوروبا التي نعرفها اليومَ استراتيجيًّا نتيجة التدافع مع الإسلام، بمعنى أن الصعود الإسلامي أدى إلى تجمُّع قادة أوروبا وأمرائها. ويلخِّص بعض المؤرخين ذلك بالقول: «لولا محمَّد لم يكن شارلمان»؛ لأن شارلمان قد وظَّف الخوف من الإسلام من أجل توحيد أوروبا، ومنذ ذلك الوقت أصبح التخويف من الإسلام أداةً استراتيجيةً في يد ملوك أوروبا عبر مراحل عديدة.

وكانت معظم المراحل الرئيسة التي دفعت أوروبا إلى وقف القتال والتقاء بعضهم ببعض لها علاقةٌ بالنفوذ الإسلامي المتصاعد. فعلى سبيل المثال، وقعت معركة ملاذ كرد في عام ١٠٧١م، وهي معركة قادها الزعيم السلجوقي المسلم ألب أرسلان ضد القوات البيزنطية في الأناضول، وقد أدت هزيمة الدولة البيزنطية فيها إلى فتح معظم أراضي الأناضول، وهو ما يعني أن معظم أراضي تركيا التي نعرفها اليومَ قد فُتحت في معركة ملاذ كرد.



كانت الدولة البيزنطية الشرقية على عداءٍ مع الإمبراطورية الرومانية الغربية في ذلك الوقت؛ حيث كانت الأولى أرثوذكسية والثانية كاثوليكية، وكان الصراع محتدمًا بينهما حول النفوذ والسيطرة على البحر المتوسط. وعلى إثر هزيمة ملاذ كرد الحاسمة، اضطر إمبراطور القسطنطينية إلى الاتصال ببابا روما، وطلب النجدة منه. وهذا أمر نادر؛ نظرًا لما بين الطرفَيْن من تاريخٍ في العداوة. وقَبِلَ الإمبراطور فكرة الوحدة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، بل بدأت إجراءات توحيد الكنيستَيْن على يد البابا لإنقاذ ما تبقى من الدولة البيزنطية من المسلمين، وقَبِل البابا طلب الإمبراطور، وعلى إثر ذلك انطلقت الحملات الصليبية.

لقد جاءت الحروب الصليبية بتأثيرٍ من نداء البابا أوربان عام ١٠٩٥م تحت شعارٍ دينيٍّ لإنقاذ بيت المقدس وقبر المسيح من الكفرة المسلمين. ولكن في الحقيقة كانت دوافع الحملة استراتيجيةً بالأساس، ومرتبطةً بمحاربة التمدُّد الإسلامي ومستقبل السيطرة الكاثوليكية على مقاليد الديانة المسيحية.

وقد ألقى البابا كلمةً خطيرةً ومهمَّةً لو قرأتموها لوجدتموها تحمل الروح التي يتحرك بها بعض ساسة أوروبا من اليمين المتطرف اليوم، فقد جاء فيها:

«يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء مُحزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد، بلاد المسيحيين فى الشرق، قلب موائد القرابين المقدَّسة، ونهب الكنائس وخربها وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذَّبوهم أشنع تعذيب، ودنَّسوا الأماكن المقدَّسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سَعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين.

على مَنْ إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم، أنتم يا من حباكم الله أكثر من أيِّ قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوِّي قلوبكم، أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همَّتكم ضريح المسيح المقدَّس ربنا ومنقذنا ـ الضريح الذي تمتلكه الآن أُمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدَّسة التي لُوِّثت ودُنِّست ـ لا تدعوا شيئًا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أُسركم؛ ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلك الجبال ـ ضيقةٌ لا تتسع لسكَّانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية. طهّروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح

المقدَّس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملَّكوها أنتم. إن أورشليم أرضٌ لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج. إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمِّسين تتخلَّصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا لا يفنى في ملكوت السماوات».

ومن الواضح كيف استخدم البابا الحججَ الدينية والعاطفية إلى جانب الإغراء بالمغانم والتوسُّع في الأرض، والصحيح أن الهدف بقي طوال الحروب الصليبية استراتيجيًّا يُستخدم فيه الدين ذريعةً وأداةً للحشد والصراع.

لقد أعطى البابا الضوءَ الأخضر لكل المذنبين والمجرمين المدانين للمشاركة في الحملة الصليبية ضد المسلمين، ووَعَدهم بأن تُغفَر لهم ذنوبهم مقابل مشاركتهم في الحرب، وكل مُشارك سيدخل الجنة دون شكٍّ.

في عام ١٠٩٥م انطلقت الحملة الصليبية الأولى، وفي عام ١٠٩٩م استطاع الصليبيون الاستيلاء على القدس، وبهذا تمكَّن البابا من توحيد أوروبا للمرة الثانية تحت شعارٍ دينيٍّ، ولكنه ذو دوافع استراتيجية أساسية من بينها:

- استعادة النفوذ والتأثير في البحر المتوسط.

- السيطرة على القدس، وتحقيق الهيمنة الكاثوليكية في مقابل المسيحية الأرثوذكسية.

لم يكن السلاجقة في ذلك الوقت على قلبِ رجلٍ واحدٍ، ففي الفترة ما بين معركة ملاذ كرد وسقوط القدس كانت الدولة السلجوقية

قد تفكّكت إلى مجموعة من الإمارات، وقد شاركت بعض هذه الإمارات في الحروب الصليبية أيضًا.

أما الدولة الفاطمية فكانت تحكم مصر، وكانت تميل إلى الصليبيين ضد السلاجقة، وكان سقوط القدس نتيجةً حتميةً لهذا التفتُّت الهائل، وهو ما يذكِّرنا بالصراعات الحالية في واقعنا العربي والإسلامي.

ومن أجل أن يقوم المسلمون بإنقاذ القدس وحَّدَ صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام ومصر تحت هدفٍ استراتيجيٍّ واحدٍ، أي إنه أسَّس مركزًا جيوسياسيًّا موحَّدًا له أولوياته الاستراتيجية النابعة من المصلحة الجامعة للمسلمين في حينه، وأنهى التناحر القائم على الأهواء الفردية والطموحات الصغيرة.

وكان لمفهوم الوحدة في أوروبا علاقةٌ بالمسلمين، فقد ارتبط الوعي الاستراتيجي الذي تشكَّل في أوروبا بالخوف من انتشار الإسلام، والخوف من هذا الزلزال الاستراتيجي الجيوسياسي الذي أحدثه الإسلام من حيثُ لا يتوقَّعه الناس؛ لأن الصراع التقليدي التاريخي كان بين الفرس والرُّوم. أما المسلمون ـ والعرب تحديدًا ـ فلم تكن لهم أية صفة استراتيجية في عالم ما قبل القرن السادس الميلادي.

فيمَ تختلف الفُتوحات الأوروبية عن الفتوحات الإسلامية؟

لمَّا جاء النبي ﷺ أطلق وعيًا استراتيجيًّا جامعًا لم يكن للعرب أن يتحصلوا عليه من غير الدين، فقد استطاعوا خلال سنواتٍ قليلةٍ أن يطيحوا بالقطبَيْن الدوليَّيْن الأعظمَيْن، وأن يشكلوا إمبراطوريةً حيويةً متدفقةً خلَّاقةً، لم تستطع أوروبا أن تفعل شيئًا حيالها سوى

محاولة التوحُّد من أيام شارلمان وصولًا إلى الصليبيين، ثم بعد ذلك إلى اللحظة التي اكتشفت فيها أوروبا أنها بدأت تتفكَّك وتنهار اقتصاديًّا، وذلك في القرنَيْن الخامس عشر والسادس عشر؛ لأن الدولة العثمانية كانت تسيطر على طرق التجارة، وأرادت النخبة الأوروبية البرجوازية الوصولَ إلى مصادر السِّلع في الهند والصين مباشرةً.

وهنا بدأت الاكتشافات الجغرافية، وبدأ البرتغاليون يلتفون حول رأس الرجاء الصالح، وبدأ الإسبان يتجهون نحو أمريكا اللاتينية، وبدأت الفتوحات الأوروبية الاقتصادية تؤثر في الاحتكار الإسلامي لطرق التجارة، ما أدى بعد ذلك إلى تراجعٍ اقتصاديٍّ خطيرٍ في الدولة العثمانية، ونموٍّ اقتصاديٍّ هائلٍ في الدولِ الأوروبية.



إن الأمر المهمَّ في ظاهرة الاكتشافات الجغرافية أنها ارتبطت بالاستعمار ارتباطًا مباشرًا؛ لأن الغرب وارث الإمبراطورية الرومانية

يؤمن بمركزية السلطة والثروة، وقد بقي هذا المفهوم حاضرًا في العقل الاستراتيجي والسياسي الغربي إلى يومنا هذا. أما المسلمون الفاتحون فلم يكونوا يسعون إلى العلو في الأرض من خلال احتكار السلطة والثروة، فالسلطة في الواقع الإسلامي ليست ملكًا للمركز، بل المركز هو مُنظِّم لقنوات السلطة ولمصادر الثروة دون احتكار ولا مصادرة.

لمَّا فتح المسلمون بلاد الشام كان الكثير من أهلها نصارى، وكذلك أهل العراق، ولم يجبرهم أحدٌ على اعتناق دينٍ آخر، وبقيت غالبيتهم على المسيحية أكثر من قرن، وهو الحال بالنسبة إلى مصر، ولم يكن شمال أفريقيا ذا غالبية عربية، وقد تمكَّن البربر من خلال فتح شمال أفريقيا من التفاعل الإيجابي مع السلطة دون إقصاء، ووجدوا أنفسهم على قدم المساواة مع الفاتحين، وهو ما لم يعهدوه من الرومان.

لقد حكم أهل البلاد المفتوحة بلادَهم ضمن مظلَّة واسعة تُسمَّى الخلافة، لكنها لم تكن ذات طبيعةٍ مركزيةٍ لا في السلطة ولا في توزيع الثروة؛ ولذلك أصبح كلُّ هذا المزيج منتميًا إلى إمبراطورية عظيمة فيها القادة العسكريون والقضاة والعلماء والفقهاء والمؤرخون والفلاسفة، وهم مزيج فريد من أصنافٍ شتَّى وأعراقٍ مختلفةٍ تمازجت وتفاعلت وأسَّست أُمَّةً شديدة التنوُّع.

إن هذا المفهوم الإسلامي للفتح مخالفٌ للمفهوم الأوروبي؛ لأن الدولة الرومانية كانت ترى أن الذي ينضمُّ إلى روما ويصبح فردًا خاضعًا ومُطيعًا لجبَروتها يصبح تحت الحكم الروماني عمليًّا، لكنه ليس رومانيًّا، بل هو مواطنٌ من الدرجة الثانية، ولا استقلال في إرادته السياسية. وقد بدا هذا التراث الروماني القديم واضحًا في

التصرفات الأوروبية فيما بعد الاكتشافات الجغرافية، أي في زمن الاستعمار.

بعد «ثورة العدل والحرية والمساواة».. لماذا لم تَرَ الشعوب المضطهدة إلَّا الخراب الفرنسي؟

هناك تباين جوهريٌّ في مفهوم الفتوحات بين الطرفَيْن، وهو الغاية من الفتح أو التوسُّع. فالمسلمون لمَّا قاموا بالفتوح بشَّروا برسالة، ورأوا أن واجبهم حملُ الرسالة إلى الأُمم ودعوتها إلى هذه الرسالة، وإذا اقتنعوا بالرسالة وآمنوا بها فهم سواسية مع الفاتحين في كل شيء. أما الغربيون فلم تكن عندهم مثل تلك الرسالة، بل كان الدافع ماديًّا، مع أن القيم الأوروبية في عصر النهضة كانت قد بدأت تتشكَّل، لكنها بقيت حكرًا على الأوروبيين، الذين لم يروا من واجبهم أن يحملوها للشعوب المستعمرة.

فعلى سبيل المثال، جاءت الثورة الفرنسية بقيم الحرية والمساواة والأخوة، ولكنها لم تحمل هذه القيم للآخرين من غير الفرنسيين.

بل عندما جاءت فرنسا إلى شمال أفريقيا لم نَرَ منها أخوة ولا مساواة! فلماذا لم تشارك فرنسا قيمها مع الآخرين الذين استعمرتهم؟ ولم يروا منها إلَّا العنف والقتل والحرق والتدمير والخراب والإبادة الجماعية؟

عندما حمل المسلمون الرسالةَ وذهبوا إلى شمال أفريقيا، وإلى غير العرب، نقلوا إليهم الرسالة وسلَّموهم إياها وأصبحوا شركاء فيها، وتعاملوا معهم بأخلاق الرسالة السامية. لكن أوروبا لم تتعامل معنا بأخلاق الرسالة، فالذين يقولون إن فرنسا هي مولد قيم الحرية

والديمقراطية، هذا صحيح، لكن لمن؟ للفرنسيين وللأوروبيين شركائهم في المنظومة الرومانية القديمة. إنهم لم ينقلوا هذه القيم لنا، ولم يتعاملوا بمنطق هذه القيم ولا بروحها.

لقد جاءت حملة نابليون بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨م، أي بعد اندلاع الثورة الفرنسية بسنواتٍ قليلةٍ، فهل تعاملت مع المصريين بقيم الثورة التي رفعت شعارات المساواة والحرية؟ ثم الجيوش الغازية التي جاءت في القرن التاسع عشر إلى شمال أفريقيا، هل جاءت بهذه القيم؟ أم بعكسها تمامًا؟

لقد جاءت بقتل الملايين من السكّان الأصليين في أفريقيا واستعبادهم.



إن هذا فارق أساسيٌّ وجوهريٌّ إذن بين منطق الاستراتيجية الإسلامية والاستراتيجية الغربية في مفهوم التوسُّع، فالفتح الإسلامي

قائمٌ على مفهوم إتاحة الفرصة لأهل البلاد أن ينهضوا بأنفسهم، بينما منطق الاستعمار الأوروبي قائم على مبدأ مركزية السلطة والثروة، وهو منطق موروث عن الإمبراطورية الرومانية، فبقيت القيم الليبرالية حقًّا للأُوروبي، أو الغربي، وليست رسالة تحرّر الإنسان حيثما وُجِد.

إن كنتَ أوروبيًّا فمن حقك أن تتمتَّع بالحرية والمساواة والديمقراطية وحكم القانون، وإن لم تكن أوروبيًّا فأنت مستثنًى من هذه القيم، ويتم التعامل معك على أساس المصلحة المادية غير الأخلاقية.

ولذلك أين هي قيم الحق والعدل والمساواة الفرنسية؟ أو أين هي القيم الليبرالية: الديمقراطية وحرية الملكية الشخصية وحكم القانون، التي جاءت بها عصور النهضة الأوروبية؟ أين هي عندما غزتنا جيوش الأوروبيين؟ لماذا لم تتبنَّ أوروبا هذه القيم مع الشعوب المستعمرة؟ ولماذا لم تتمتَّع الشعوب المستعمرة بمثلِ هذه الرسالة الرائعة التي قدَّمها مفكرو أوروبا وفلاسفتها للمجتمعات الغربية؟ لعل الجواب على ذلك يكْمُن ـ مرةً أخرى ـ في مفهوم الحضارة الرومانية للهيمنة.

إن لم تكن أوروبيًّا.. فأنت مستثنًى من قيمها

تُقسم الفكرة الرومانية القديمة العالمَ إلى قسمَيْن:

- قسم العالم الروماني المتحضِّر، ويشمل كلَّ الأراضي الخاضعة للدولة الرومانية.

- وقسم آخر هم البرابرة، أي الهمج، وهؤلاء لا يتمُّ التعامل معهم وفقًا للقواعد الرومانية، بل بوصفهم كائناتٍ لا شأن لها بقيم

الحرية والمساواة ولا بالقانون وحكمه. وهو ما وَرَثَتْهُ أوروبا للأسف الشديد، وفعلت في شعوبنا ما فعلته روما في المناطق التي لم تكن خاضعةً لحكمها، واستمرَّ هذا الحال حتى يومنا هذا، فقد صمت الغرب عن الانقلابات والسجون والاعتقالات وانهيار حكم القانون في العالم العربي صمتًا مشينًا.

إنني معجبٌ حقيقة ببعض الفلاسفة الأوروبيين الذين جاءوا بقيم سامية ونبيلة، وينبغي لنا أن نستفيد منها، لكني أقول لكم إن هذه القيم بقيت حكرًا على أوروبا ذاتها، ولم يتم التبشير بها إلَّا إذا كان فيها خدمة للمستعمر، فعندما تكون الديمقراطية مفيدةً لمصلحة غربية يدعم الغرب هذه الديمقراطية، لكن إذا اختار الشعب من ليسوا على وفاقٍ مع المنهج الاستراتيجي الغربي، أي منهج التبعية، عندها يفضلون الديكتاتورية من دون تردُّد.

ومن ثَمَّ لم تعُد الديمقراطية قِيميةً بل أصبحت مصلحيةً، ولم تعُد ذات بُعْد أخلاقيٍّ بل أصبحت ذات بُعْد منفعيٍّ استراتيجيٍّ يتحوَّر ويتحوَّل وفقًا للمصلحة الغربية.

«جدل المصلحة الاستراتيجية» وسِجِل الأكاذيب الأوروبية

لقد أوجدت مشكلة الازدواجية المتكررة في العقل الجمعي العربي والإسلامي شكوكًا عميقةً تجاه أوروبا وسياساتها، فعندما جاءت إلينا بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى بفكرة وضعنا تحت الانتداب لمساعدتنا في خمس سنين على النهوض بواقعنا العربي، وبعد ذلك تمنحانا الحرية والاستقلال، كانتا تكذبان، وتعلمان أنهما تكذبان. لقد كان الكذب الذي مورس علينا في مطلع هذا القرن مذهلًا.

لقد وُعِدَ الشريف حسين بمملكة تمتدُّ من عدن إلى الإسكندرون، تتضمَّن كلَّ جزيرة العرب بحدودها الطبيعية، إن هو ثار على الدولة العثمانية، ولكن تبيَّن فيما بعد أن كل ذلك كان كذبًا متعمدًا.

لم تكن وعود أوروبا للشريف حسين بن علي إلَّا مصلحة استراتيجية رأتها أوروبا لهزيمة العثمانيين، ثم التحكُّم بهذه المنطقة. فبريطانيا لها مصالحها، وفرنسا لها مصالحها، وكانت وعود الاستقلال والحرية محضَ خداع.



ولم يكن السبب في ذلك أن الشريف حسين - على سبيل المثال - كان رجلًا إسلاميًّا إرهابيًّا (أو إسلامويًّا كما بدأوا يقولون)، لم يكن الأمر هكذا، بل كان الشريف حسين بن علي يُعَدُّ من جماعة «المعتدلين» بتَعبير اليوم، وقريبًا إلى بريطانيا، وكانت هناك جماعة ثانية من «المتشدِّدين» الوهابيين بنجد، والحقيقة أن البريطانيين لم

يتورعوا عن دعم عبد العزيز آل سعود في نجد لكي يسيطر على الحجاز التي كانت تحت حكم الشريف «المعتدل».

لم يكن الجدل يومها ـ كما هو اليوم ـ جدلَ اعتدال أو تطرف، بل جدل مصلحة استراتيجية يُستخدم فيها الاعتدال والتطرف والدين: إمَّا من أجل تعزيز قيم الوحدة الأوروبية في حالاتٍ كثيرةٍ ذكرنا بعضها، وإمَّا من أجل الانتقاص من القوى التي تقاوم المشروع الأوروبي والمشروع الغربي في بلداننا.

ومن مآسي الوعي الاستراتيجي العربي أنه وُلِدَ وترعرع في ظل المنظومة الغربية وتحت رعايتها، فمنذ مؤتمر عام ١٩١٣م الذي انعقد في باريس وجمع الجمعيات العربية التي كانت تطالب بحالة عربية خاصة في الدولة العثمانية، منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا وكل فعلٍ نقوم به في حكوماتنا ونُخبنا وأحزابنا وتياراتنا السياسية مرتبطٌ بالغرب بشكلٍ أو بآخر، بمعنى أنه مرتبطٌ بماهية رؤيتنا للغرب. لقد عجزنا عن تأسيس مركزية جيو ـ استراتيجية خاصة بنا، وبقينا نطوف في مدار الغرب سلبًا وإيجابًا.

أما ذريعة الغرب حاليًا في «الحرب على الإرهاب والتطرف»، فهذه هي الأخرى أداة استراتيجية في مواجهة مستمرة.

لم يكن جمال عبد الناصر إرهابيًا إسلاميًا، بل كان قوميًا، وما قبل جمال عبد الناصر من الزعماء الذين حكموا العراق كان معظمهم «معتدلين» مثل نوري السعيد والملك فيصل وغيرهما، لقد كانوا متصالحين مع المنظومة الغربية، ومع ذلك لم يتسامح الفرنسيون ولا البريطانيون مع أي زعيم حاول ولو بشكلٍ بعيدٍ أن يحقِّق حالةً من الاستقلال في القرار. لم يتسامحوا معهم وهم «معتدلون»، ولم يتسامحوا مع عبد الناصر القومي، ولم يتسامحوا مع مرسي

الإسلامي؛ فالاستراتيجية الغربية في بلادنا واضحة، محدَّدة ومستمرة، وجوهرها أن تبقى هذه المنطقة ذات طبيعة مفكَّكة مرتبطة بالغرب.

قال الرئيس الفرنسي ماكرون في تعليقه حول تركيا على قناة الجزيرة: «مشكلتي مع تركيا أن الأتراك إمبرياليون يحبون التوسُّع والتدخل في شؤون الآخرين»، لماذا يا سيد ماكرون لا يجوز للأتراك أن يتدخلوا في ما كان جزءًا من الفضاء العثماني المشترك قرونًا أربعة، ويجوز لك أن تتدخل في البلاد التي استعمرتها فرنسا في شمال أفريقيا وغربها وفي لبنان بذريعة الرابطة الفرانكفونية؟ مع العلم أن تاريخ استعمار فرنسا لهذه البلدان تاريخٌ دمويٌّ ومُخزٍ.

لماذا ينبغي لك أن تكون إمبرياليًا ويصح لك أن تكوِّن إمبريالية خاصَّة بك، ولا يجوز لأحدٍ آخر أن يفكِّر في جواره الحضاري وأن يتصل مع تراثه التاريخي؟

إن مقولة ماكرون هذه مقولةٌ مستعليةٌ وتمثِّل ما أحاول الإشارة إليه بالضبط، وهو أن القيم الغربية ينبغي أن تبقى للأوروبيين، أما عندما تدَّعيها أنت أو تؤمن بها فهنا تقترف معصية، إلَّا إذا جاءت بنتيجة تخدم المصلحة الغربية.

«التَنَمُّر عند الضعف».. ما هي مشكلة الغرب مع الإسلام؟

إن فكرة «إصلاح الإسلام» وتحويله من دينٍ تراثيٍّ تقليديٍّ إلى دينٍ حداثيٍّ معاصرٍ هي فكرةٌ تدخل في السياق نفسِه، أي إبقاء العالم العربي والإسلامي تابعًا للمركزية الغربية.

إن الإسلام بالنسبة إلى الغرب فيه مشكلة كبيرة؛ لأن الغرب لا يستطيع أن يواجه الإسلام دينيًا، فكان لا بدَّ من تحويل الدين إلى

أيديولوجيا؛ ولذلك تمَّ نفي صفة الدين عن الإسلام وزيادة التعامل معه على أنه أيديولوجيا، أيديولوجيا تتعلَّق بمسألة الإرهاب والإسلام السياسي، والأيديولوجيا في الوعي الغربي بالطبع ذات سُمعة سيئة؛ لأنها تذكِّرهم بالأيديولوجيا الشيوعية والحرب الباردة، والأيديولوجيا النازية قبل ذلك، ومن ثَمَّ يسهل محاربة الأيديولوجيا أكثر من محاربة الدين نفسه، ويصبح «المتطرفون» حالةً استثنائيةً خاصةً ينبغي التعامل معها خارج قوانين العدالة والمساواة وحكم القانون، وما إلى ذلك.

هنا تشعر أن تلخيص مسألة الإسلام بالإرهاب والتطرف هو محاولة لترسيخ الاستثنائية في التعامل مع المسلمين، بمعنى أنها تدفع باتجاه استبعاد حق مسلمي الغرب في أن يكونوا مواطنين على قدم المساواة مع الأوروبيين.

نحن الآن أمام هذه اللحظة الخطيرة، بسببٍ مهمٍّ جدًّا، هو أنّ أوروبا اليوم ضعيفةٌ ومرتبكةٌ. وأنا أقول لكم: عندما تضعف أوروبا تتنمَّر، وتصبح أكثر خطورةً، وهو ما نستطيع أن نجده في كل المراحل التاريخية: الضعف الأوروبي الاقتصادي والسياسي، وحالة التفكُّك، وخُروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وانتشار اليمين المتطرف في أوروبا، والهجرة، والمزايدات بين ماكرون وماري لوبان في فرنسا، كل هذا الصراع يؤدي عادةً إلى التنمُّر والعداء لـ«الآخر»، والآخر اليوم هو المسلم.

العدو المشترك بالنسبة إلى أوروبا.. «هل يصبح المسلمون يهودَ هذا العصر؟»

في فترة ما شكَّل اليهود مثل هذا «الآخر»، واليوم أتفق مع ما قاله الاستراتيجي الأمريكي ذو الأصل اليهودي جورج فريدمان من

أن «المسلمين سيصبحون يهود هذا العصر بالنسبة إلى الأوروبيين».

لماذا؟ لأنه حتى تحاول أن تجد ما يجمع شتات المجتمعات الأوروبية - خاصةً تلك التي تميل إلى اليمين المتطرف - ينبغي أن تجد لها عدوًّا مشتركًا، والعدو الآن جاهز، ويتمُّ تحضير هذا العدو وتجهيزه إعلاميًّا وسياسيًّا منذ وقت طويل.

إن زوجة هذا العدو تغطي رأسها، ولهذا العدو لحية طويلة، ويأكل هذا العدو طعامًا مختلفًا ذا رائحة نافذة كما قال الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك، وهو عدو لا يساوي بين المرأة والرجل، وهو لا يؤمن بـ «المثلية الجنسية»، ومن ثَمَّ فالعدو جاهز، بقي فقط أن تنزع عنه أية سمة إنسانية كي تستحلَّ استثناءه من حقوق المواطنة والقانون.

إن مقولة «الاعتدال» مقولةٌ بغيضةٌ، ولا تقصد مراكز السلطة في الغرب مساعدتنا على التجديد في الإسلام، أو أن نقوم بإصلاحاتٍ معيَّنة في منظومتنا الاجتماعية والثقافية، ليس هذا مقصودها أبدًا، بل المقصود الغربي من إثارة ما يُسمَّى «أزمة الإسلام» هو أحد أمرين: أن يفقد الإسلام روحه، وأن يتحوَّل إلى ثقافة فرعية عن المركزية الغربية؛ وإلَّا فهو أيديولوجيا لمتطرفين خارجة عن المنظومة القيمية الغربية، ينبغي استهدافها. هذا هو جدل الاعتدال والتطرف بالفعل.

وفي تقديري أنه يجب ألَّا نقع في هذا الفخِّ. نحن نحتاج بالفعل إلى تجديد، حيث يحتاج وعينا الإسلامي إلى إعادة نظرٍ دائمة، ويحتاج تراثنا إلى غربلة، وتحتاج أفكار كثيرة لدينا إلى إصلاح، ليس في هذا شكٌّ. لكنه تجديدٌ نقوم به نحن، من داخل منظومتنا الفكرية ومرجعيتنا المنهجية، ولخدمة نهوضنا واستقلالنا، ومساهمة منا في حوار إنساني عالمي.

«حماقات التواد مع ماكرون واستهداف الدين».. كيف يؤدي إلى نهضة إسلامية جديدة؟

بعض الدول التي سارعت للاتصال بالرئيس الفرنسي والحديث معه حديثًا وديًا، واستقبال السفير الفرنسي، والكلام الودود الذي صدر عنهم تجاه فرنسا، كل هذا كان ضمن صراعٍ استراتيجيٍّ؛ لأن هذه الدول شبيهةٌ تمامًا بتلك الدول التي استقبلَت مندوبي البعثة الصليبية التي جاءت لنصرة القسطنطينية ضد السلاجقة واحتلال القدس.

لهذا أقول: إن نتيجة هذا الصراع الذي يتمُّ حاليًّا على الإسلام سيؤدي إلى نهضة إسلامية جديدة.

لماذا؟

لأن الغرب عندما استهدف الإرهابيين قلنا: قوم تمَّ استهدافهم فردوا، أعني أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وانفجارات لندن، وانفجارات مدريد. قد تجد تفسيرًا لذلك بأنهم غاضبون من تنظيمي القاعدة وداعش.

لكن الاستهداف الحالي ليس في الحقيقة ضد تنظيمي القاعدة وداعش كما كان في السابق، بل هو استهداف للرموز الدينية الإسلامية، وهو ما ألخصه في النقاط التالية:

١ ـ من استهداف الأقلية إلى استهداف الجميع:

أرى أنهم قد ارتكبوا حماقةً لإرضاء المتطلبات الداخلية المتناقضة في أوروبا ـ فرنسا تحديدًا في هذه الحالة ـ وفي دولٍ أخرى، ولكنهم في الحقيقة قد خرجوا من استهداف الأقلية إلى استهداف الجميع، أي جميع المسلمين؛ لأن رمزية النبي عليه

الصلاة والسلام لا يختلف عليها مسلم، وإنما يختلف عليها من يُسَمَّوْنَ بالمُعتدلين وَفق المعايير الغربية، الذين سيسارعون دائمًا إلى التبرير للغرب أية فِعلة لأسبابٍ تعرفونها. إذن، لقد نقلوا المعركة من استهداف الأقلية إلى استهداف الجميع، وهذا في رأيي مُحفز للعالم الإسلامي.

٢ ـ دافع جديد في اتجاه الغرب نحو اليمين:

إن شعور المسلمين اليوم أن الغرب يتجه نحو اليمين، والبُعْد القومي ضد المسلمين في الغرب، وضد المسلمين خارج الغرب، هو في رأيي دافعٌ جديدٌ للمسلمين كذلك لكي يلتفَّ بعضهم حول بعض، وهذا ليس ممكنًا على المستوى الرسمي في وقتنا الحالي لعدم وجود قياداتٍ استراتيجية، فمعظمها تكتيكية، تحاول البقاء في السلطة، ولا تريد أن تحقِّق أية استراتيجية مشتركة، بالعكس تخاف من مفاهيم التكامل والوحدة والتواصل؛ لأن هذا بالنسبة إليها يهدِّد عروشها وكلَّ امتيازاتها.

إن هذا التناقض بين ضمير الأمة الجمعيِّ وقياداتها السياسية سيؤدي إلى إعادة اكتشافٍ للهوية الإسلامية لدى الشعوب، ولا يجب أن يكون هذا الاكتشاف ردة فعل فحسب، وإنما صحوة حقيقية، تولد قيمًا جديدةً تنبع من الإسلام، وتخاطب الحاضر، وتكون فاعلةً عمليًا لا نظريًا، وهذا في رأيي أمر مركزيٌّ في قضية اليوم.

إن الدافع موجود، وقد رأينا ضعف الحجَّة التي تقول إن الأمة قد ماتت، وإنما استيقظت بسبب الرسوم المسيئة للنبي ﷺ وتصريحات ماكرون. وفي رأيي أن الأمة لن تموت؛ لأنها مرتبطةٌ بالكتاب الذي هو موجود ولن يزول مع الزمن، ومن ثَمَّ فالأمة التي تحمله لا تزول، لكنها تضعف ثم تقوى، ففيها عناصر نهوض ذاتية، وقد تتحرك وتتفاعل حتى بوجود نخبٍ سياسية لا منتمية.

إن منظومتنا المعرفية تنبعث من داخل مجتمعاتنا؛ لأن الأمة هي مستودع الحق لا الدولة، والأمة هي التي تحمل قيم الدين لا الدولة، وتولد هذه الأمة مفاهيمَ جديدةً وقوًى جديدةً، وقد يحدث هذا غدًا أو بعد غدٍ، وستستمر عملية التوليد هذه إلى أن نجد نموذجًا جديدًا يحمل قيمًا للناس: قيم الدين، وقيم القرآن، وقيم الحق. ثم تصبح الدولة مؤتمنةً على هذه القيم، وعندما تضعف الدولة تبدأ دورة جديدة من إنتاج قيمٍ أخرى. ويجب أن نتفاءل؛ لأن هذه الأمة لن تموت إن شاء الله، وإنما ستبقى حيَّةً ما دام هذا الكتاب ـ الذي هو القرآن ـ موجودًا بين يديها.

«اختطاف أجزاءٍ من الإسلام».. وأبجدية البحث عن المستقبل في واقع فاشل

لقد اختُطف الخطاب الإسلامي من قِبل قوى كثيرة؛ من تياراتٍ أرادت أن تفسره تفسيرًا تقليديًّا تاريخيًّا بعيدًا كل البُعْد عن الواقعية فأضرَّت بحضوره المعاصر، وأخرى أرادت أن تفسره تفسيرًا انفعاليًّا غاضبًا عنيفًا فشوَّهت صورته، وأخرى أرادت أن تفسره تفسيرًا «معتدلًا» أي مُستَلبًا متسقًا مع المنهجية الغربية فأفقدته روحه، وفوق كلِ ذلك حاولت أنظمة عربية أن توظف الخطاب الديني لتبرير تسلُّطها واستئثارها بالثروة وقمعها للمعارضين، كل هذه التيارات قد اختطفت أجزاء من الإسلام أو من الصورة الإسلامية في عالمنا.

وقد آن الأوان أن نستفيد من كل هذه الأخطاء، وأن نسعى إلى ولادة تيارٍ جديدٍ يؤمن بأن الإسلام بقيمه يسكن المستقبل؛ وهو إسلام ذو طبيعة عالمية، وهو إسلام فاعل في الزمان وفاعل في كل مكان، وقادر على أن يخاطب مسائل العصر بلغة العصر، دون أن يقع في فخِّ الارتهان والاستلاب الفكري، ودون أن يقع في فخِّ

الجمود والانكفاء نحو الماضي البعيد. وأنا أستبشر خيرًا أن الأمة ستُوَلد جيلًا جديدًا يحمل قيمًا جديدةً، قادرًا على أن يتفاعل مع العصر بأدواته دون أن يضحي أيضًا بالاتصال الفعلي المباشر بالقيم الأساسية.

إن الواقع الذي أنتجه السَّيْر في ركاب الغرب عبر مائة عام هو واقع فاشل بامتياز، فدوران منظومتنا السياسية والاستراتيجيةً في المدار الغربي لم يأتِ لنا بالاستقرار ولا بالازدهار، ولم تتحقَّق في البلاد العربية ديمقراطية، ولم ننعم بالحرية، ولا حكم قانون، ولا الاكتفاء الاقتصادي، ولا السلم الأهلي.

لقد فشل الكيان السياسي، وتفكَّك النسيج الاجتماعي، وتراجع السلم الأهلي، وتعثَّر الأداء الاقتصادي، وتهاوت المنظومة الاستراتيجية وضاعت بوصلته، ولم تكتسب الدولة العربية شرعية حقيقية، ولا أداءً وظيفياً كافيًا، فهذه المنظومة التي صُنِعت على عين الغرب عبر مائة عام، أي عبر قرن كامل، كان ينبغي أن تؤتي ثمارها لو أن الغرب كان صادقًا في أن يعيننا على النهوض، ولكنه في الحقيقة أراد إضْعافَنا فضَعفنا.

ومن ثَمَّ فالبحث عن المستقبل لن يتمَّ من خلال الارتهان إلى المنظومة الفكرية الغربية، ولا المنظومة السياسية الغربية، ويجب أن يكون هذا المفهوم مركزيًّا لكل من يفكِّر في إشكالية النهوض. ولا يعني هذا بالطبع تجاهل المنجزات الغربية، فكثير منها ضروريٌّ، وينبغي توظيفه؛ ولكن ينبغي أن يتمَّ ذلك بعيدًا عن الارتهان إلى المركزية الغربية.

إن معظم حكَّامنا في هذه اللحظة لا يفكِّرون إلَّا ببوصلة أمريكية أو غربية، وهذه البوصلة ستستمر في الفشل، وستستمر في قيادة

السفينة إلى دواماتٍ عنيفة مدمرة، وسيأتي وقت يقفز منها أناس يحاولون أن يبنوا شيئًا جديدًا، وحتى ذلك الوقت فإن البوصلة فاشلة وفشلها ذَريع، وهي غير قادرة على الإنجاز، ومن ثَمَّ فهذا أكبر حليف للذين يريدون أن يبنوا شيئًا جديدًا؛ لأن هذا الواقع لا يمكنه أن يستمر، أو أن يصل إلى درجة مقبولة من الإنجاز المقنع أو الشرعية الفاعلة لشعوبنا.

لا بديل عن أن نؤسس مركزًا جيوسياسيًّا ينتمي إلى أرضنا وثقافتنا، ويقوم على رعاية مصالح أممنا وشعوبنا. ولا بدَّ أن ننفكَّ عن المركزية الاستراتيجية الغربية إن كان لنا أن ننعتق من دوامة الخراب والفساد الذي عشناه قرنًا كاملًا حتى الآن.

وحتى نتمكَّن من تأسيس مركزية منتمية، فإننا مدعوون إلى أن نفهم تاريخنا لا أن نسكن فيه، وأن نفقه أصول الوعي الذي أسَّس أكبر انقلاب جيوسياسي في التاريخ، الوعي الذي أطلقه النبي محمد ﷺ، من بلدةٍ صغيرةٍ نائية، بعيدةٍ عن مراكز السلطة والنفوذ الدولي، وهو وعيٌ ذو مرجعية رسالية وأُسس قيمية عالمية، كانت وستبقى أصولًا كبرى لمنهجية متجدِّدة تخرج بالإنسان من ضيق التسيُّد إلى أفق التعبُّد.

في هذا الكتاب، سنتلمَّس قيمًا من هذا المنهج، وأنا على يقينٍ أن مشكاة النبوَّة هي أكبرُ مرتكزٍ لبناءِ وعيٍ إنسانيٍّ جديدٍ.

ماذا يقول لنا رسول الله ﷺ في هذا الزمن؟

تُعَدُّ محاولة التطرق للسيرة النبوية ولأحداثها ودروسها منسابةً طيبة ومباركة، بحيث نأنس بظلالها الوارفة ونستلهم من تعاليمها الغزيرة؛ ذلك أننا نعتقد أن سيرتهُ عليه السلام مليئةٌ بدروسٍ للبشرية، ودروسٍ لنا نحن معشر المسلمين، وأن هذه الدروس لا تقتصر على قيمٍ أخلاقيةٍ وتربيةٍ روحيةٍ وعلى نموذجٍ إنسانيٍّ بديعٍ وصافٍ لتربيةِ نفوسنا، والارتقاء بذواتنا، وإنما أيضًا كأسوةٍ لكلِّ إنسانٍ في موقعه وتخصُّصه.

ضياع النسق المتكامل في «سرديَّات مُكرَّرة»

تعوَّدت قراءة كتب السيرة النبوية منذ الصغر؛ ذلك أنها كانت موجودةً دائمًا في مكتبة والدي رحمه الله، وكان يحُثني دائمًا على قراءة هذه الكتب، مثل سيرة ابن هشام والكامل في التاريخ لابن الأثير، والكثير من كتب التاريخ الأخرى التي لازمتنا منذ ذلك الوقت.

منذ آن ذاك، بدأت ألحظ أن نصوص السيرة النبوية في الكتب التراثية تتكرَّر حرفيًّا في كثيرٍ من الكتب، بمعنى أن روايات السيرة النبوية في معظم الأحيان تجدها مُكررةً من دون تحليلٍ معمق أو سياقاتٍ موسعة.

وفي معظم الأحيان، تجد أن كلَّ قصة تُروى في ذاتها من دون أن تُربطَ بالقصص أو بالسياقات الأخرى، لكي يكون لدينا نسق واحد متكامل في صيغةٍ يمكن لنا أن نخرج منها بقواعد منهجية أو بنظرية في التعامل مع السيرة النبوية في مجالاتٍ محدَّدة.

ومع توالي الأيام، وما تلى ذلك بعد دخولي عالم الصحافة، بدأت ألحظ أن من أهم الركائز والمحددات في الفعل والتحليل السياسي هو السياق، فعلى الصحفي الذكي أن يكون لديه سياقٌ للخبر. *فبإمكانك أن تسمع الخبر مجرداً، لكنك إن وضعته في صياغة تشمل السياق، بمعنى معرفة المكان والزمان اللذين قيل فيهما، والمستهدف من خلاله والمقصود منه ومآلاته، فإن المعنى يختلف.*

ذلك أن بعض أقوال السياسيين أو الزعماء أحيانًا ليست مقصودةً بذاتها، بل يُقصَدُ منها التأثير في شيء آخر، ويكون متوخى منها أحيانًا أخرى إيصال رسالة إلى من يهمه الأمر.

«العمق الكافي» لصناعة المعرفة

ومن ثَمَّ فإن تحليل الخطاب لدينا نحن معشر الصحفيين يستند إلى عددٍ من القواعد منها:

- القاعدة الأولى: أن تجد سياقًا لفهم المعلومة

في كثيرٍ من الأحيان، تكون المعلومة من دون سياق عقبةً أمام المعرفة المتكاملة؛ لذلك تجد أن الصحفي الذي يسمع خبرًا ويريد أن يتحدَّث عنه مباشرةً قبل أن يفهم لماذا قيل؟ وكيف قيل؟ وما المقصود منه؟ لا يملك - في الغالب - العمق الكافي لكي يصنع من الخبر معلومةً مفيدةً في سياقٍ مكتملٍ، أو ما نسميه تحويل المعلومة إلى معرفة.

- القاعدة الثانية: التعرُّف إلى ما دون السطح

يميل الإنسان دائمًا إلى التعميم؛ لأنه أسهلُ. فالعقل يحبُّ أخذ بعض المعلومات والبناء عليها بشكلٍ سريعٍ وسطحيٍّ وتحويله إلى نظرية كاملة في فهم الأحداث، فيستدلّ على نظريته أو قناعاته بواقعةٍ أو اثنتَيْن، وبحادثةٍ وشبيهتها وهكذا.

بينما الصحفي الماهر تقوم مهنته على رؤية الظلال المختلفة للواقع، وملاحظة الشقوق في جدار الخبر، والتعرف إلى خفايا الأحداث التي لا تظهر عادةً على السطح.

- القاعدة الثالثة: البحث عن الاستراتيجيات غير المعلنة

الذي يظهر للعلن أقلُّ بكثيرٍ مما يحدث في الخفاء، والسياسة ابتداءً تقوم على إخفاء الاستراتيجيات، فقد يُعلن منها الشيء البسيط من خلال خطابٍ استراتيجيٍّ عامٍّ، أو من خلال خطابات صنَّاع القرار ووثائق تُقدَّم للبرلمانات، كما يحدث ـ على سبيل المثال ـ في الولايات المتحدة الأمريكية عندما يعدُّ مجلس الأمن القومي خطابًا للرئيس عن حال الاتحاد واستراتيجية الأمن القومي، لكن إنزال هذه البنود الاستراتيجية على الواقع يكون سريًّا في الغالب، وإخفاء المعلومات هو الهدف الأساسي وراءها؛ لأن العلاقات السياسية والدولية تقوم ـ في الغالب ـ على عدم الثقة وليس على سواها، وهذه قاعدة متعارف عليها ومسألة معمول بها بين الدول على نطاق واسع.

- القاعدة الرابعة: موازين القوة أساس للتفريق بين ما يقال وما يُفعل

كثير من الساسة والزعماء يخاطبون شعوبهم ومتابعيهم مظهرين معانيَ معيَّنةً تحمل محاولةً لإرضاء الناس أو إظهار مواقف ذات شعبية، لكن لا يعني ذلك أن الذي يقال على المنابر وعلى الشاشات

سوف يتحوَّل إلى فعلٍ عمليٍّ على الأرض؛ لأن تصرفات الدول تأخذ موازين القوة بالاعتبار، أما الخطابات فلها وظائف أخرى، وهذا بالطبع أمر ضروريٌّ عندما نحاول استشراف مستقبل الأوضاع، فينبغي أن نحيط علمًا بميزان القوة، فعندها فقط نتمكَّن من استشراف الأحداث ونقدر على استيعابها.

استواء المنهج المكتمل.. «أسوةٌ حسب المتأسِّي»

عند بداية قراءتي للسيرة، بدأت ألاحظ أن هناك نسقًا واضحًا ومتكاملًا في سيرة النبي ﷺ، وأنه يحتاجُ إلى ربطٍ على مستوى الأحداث التي تدور فيه، حتى يرتقي إلى منهجٍ مكتملٍ.

بحيث يمكننا أن نستفيد منه في فعله الاستراتيجي وتدبيره السياسي ورؤيته للعالم وكيفية إدارته للصراعات، وكذلك في طبيعةِ تغيير المجتمعات وبناء نُظُمٍ وأفكارٍ ورؤى وتصوراتٍ جديدة.

فكلُّ هذا كامن في السيرة؛ فلو دقَّقت النظر في حادثةٍ ما وقعتْ في مرحلةٍ ما خلال تلك الفترة، ودرست السياقات وفهمت الواقعة كما كانت ولماذا كانت في إطارها الزماني والمكاني، تستطيع عندها تكوين منهجية معرفية متكاملة يكون فيها فعل النبي ﷺ أُسوةً لنا في كل زمن، مع الأخذ بالاعتبار أن التصرفات السياسية والاستراتيجية في عصرٍ معيَّنٍ قد لا تنطبق على أزمنة مختلفة، إلَّا أن المنهج يمكن البناء عليه بغضِّ النظر عن اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ليس النبي أُسوةً فقط في مجالات التربية والإعداد النفسي والروحي والخلاص الشخصي والذاتي، بل يتعدى ذلك ليكون أُسوةً في ميدان الاستراتيجية والتدبير السياسي، وأسوةً لكل منشغلٍ بالعمل الاجتماعي، وكذلك أُسوة للنُّظُم الدولية المتطلعة لتثبيت قيمٍ عليا تكون مصلحة الإنسان مركزًا فيها.

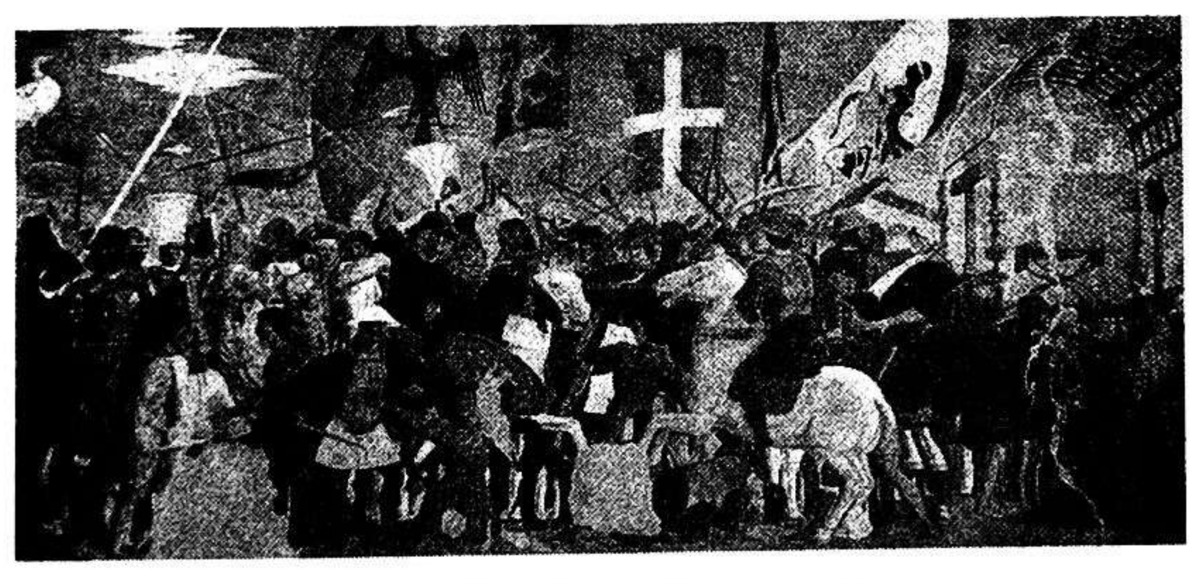
«تكليفٌ ثقيل» على هامش الصراع الدولي

وهذا ما أريد أن أتطرق إليه تحديدًا، فالمتأمل في التكليف الرئيسِ للنبي ﷺ من الدعوة في وقتٍ مبكِّر، يجد تكليفين أساسيَّيْن، بدأ كلٌّ منهما بقوله ﷻ: وما أرسلناك (إلَّا).

ففي التكليف الأول، ذكر الله ﷻ في سورة سبأ [٢٨]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فالله ﷻ هنا يخبر النبي ﷺ أن عليه أن يعي بأنه أُرسلَ «للناس كافَّة» بشيرًا ونذيرًا.

فتخيلوا كيف ينزل هذا الخطاب على محمدٍ ﷺ في القرن السابع الميلادي ـ ربما في عام ٦١٤ م ـ في المرحلة المكيَّة الأولى، وما الذي كان يحدث في ذلك الوقت؟

فقد كان العالم متشكلًا من قطبَيْن عظيمَيْن يديران العالم، ألَا وهما الفرس والروم. وكانت مكة ـ بوصفها بلدةً صغيرةً ومنعزلةً في مكانٍ ناءٍ وبعيدٍ ـ لا يُعرَفُ عنها إلَّا ما يتداوله بعض التجَّار الذين يديرون تجارةً عابرةً للصحراء عن طريق عددٍ محدودٍ من الجمال التي تنقل البضائع سنويًّا من اليمن إلى الشام والعراق والعكس.



الحرب بين الفرس والروم ٦٠٢ ـ ٦٢٨م

خلال هذه الفترة التاريخية، شهد العالم صراعًا دوليًا هائلًا على أطراف الجزيرة، وكانت مجريات الحرب مستمرةً منذ عام ٦٠٢م بين الفرس والروم، وهو ما أدى إلى تدمير كلا الجانبين في عدَّة معارك هائلة. ونزل هذا التكليف على النبي ﷺ في عام ٦١٤م، وهو العام ذاته الذي دخل فيه الفرس إلى فلسطين، وقاموا فيه بالسيطرة على القدس واحتلال الشام ومصر، وسنأتي لاحقًا لهذه القضية.

ولهذا فنحن أمام التكليف الأول، الذي نزل على نبيٍّ يعيش في مكة بأدواتٍ بدائيةٍ وعلى تواصلٍ جدّ محدود مع العالم، بعيد كل البُعْد عن المركزيات القطبية العالمية. لكن الرسالة التي وُجِّهت له أشارت له بـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

إن كلمة «الناس» تشمل الجميع؛ وفي ذلك الوقت كانت تشمل الصين والهند وغيرهما، وهو ما كان يعلم به، لا سيما أن منتجات هذه البلدان كانت تأتي من خلال طرق الحرير إلى عدن، ثم تنقلها القوافل عبر مكة إلى الشام.

وكان يعلم بأوروبا كذلك؛ لأن الروم والقرشيين في ذلك الوقت كانوا ينقلون إليها بضائعهم. ونذكر هنا أن جزءًا أساسيًا من التجارة القادمة من قريش قد تجلَّت - في أغلب الأحيان - في اللبان والبخور التي كانت تُحرق في الكنائس في أوروبا كجزء من الطقوس الشعائرية، وكانت البضائع تُنْقل من عدن عبر مكة إلى غزة ثم إلى أوروبا.

وهو كذلك رسولٌ لمصر والحبشة وأفريقيا، التي كان يعرف عنها أيضًا، بحيث تعتبر قريبةً من مكة جغرافيًا، وتجارتها معها مستمرة، كما أن نسبةً من سكَّان مكة ذات أصولٍ أفريقية، وهو ما جعله عليمًا بأعرافهم وعاداتهم.

ولكن ماذا عن العالم خارج هذه المناطق التي يعرفها؟

لقد كان محمدٌ رسولًا للناس قاطبة، فيا له من تكليفٍ ثقيل، ويا له من تشريفٍ عظيم.

إن هدفي من هذه المقدمة يكْمُن في أن أحاول وضعَ الإطار النفسي للنبي ﷺ بين أيديكم، حين تعلَّق الأمر بالتعامل مع واقع يتطلب منه تنفيذ أمرٍ إلهيٍّ يكون فيه رسولًا للعالمين.

فكيف فعل هذا؟ وكيف قام بمهامه رسولًا للناس أجمعين؟

تكليفٌ ثانٍ يصنع «العقل الاستراتيجي» المحمَّدي

بدأ التكليف الثاني أيضًا بـ «ما أرسلناك إلَّا»، حيث قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فمن كان المقصود بـ «العالمين»؟

إنه مفهوم أوسعُ من المعنى الذي تحمله كلمة «الناس». فـ«العالمين» تشمل كلَّ ما خلق الله ﷻ من إنس وجن وحيوانات ونبات وأكوان، وكل ما يشمل خلقه. فهي ليست عالمًا ولا عوالم، بل «عالَمين»، فأنت يا محمَّد ما أُرسلت إلَّا رحمةً لهذه العوالم الكثيرة المختلفة التي خلقها الله ﷻ.

إذن، أنت رحمة للإنس والجن والطير والحجر والشجر والكون والمناخ، ورحمة للبشر جميعًا، ورحمة لكل المخلوقات التي وجدتها، والتي ستوجد مستقبلًا في مختلف بقاع العالم.

لقد شكَّل هذان التكليفان الوعي الاستراتيجيَّ العميق للنبي ﷺ، بحيث إن أولهما يشير إلى الناس كافَّةً، والثاني يوجِّهه بأنه رحمةٌ للعالمين. ولذلك كنتُ كلما قرأتُ عن الفعل الاستراتيجي للنبي ﷺ أصل إلى التساؤل التالي: ما الذي يميز نبيًّا عن غيره من بقية زعماء العالم وقادته؟

كيف أصبح أباطرة التاريخ «عِظامًا»؟

مهتمًّا بفهم سياق تلك الفترة ودروسها، بدأت قراءتي تتمحور حول زعماء ذلك الوقت وقبله، بالإضافة إلى أباطرة سطَّروا ملاحم التاريخ وأرَّخوا لأسمائهم فيه.

لقد كان أعظم زعيم لفارس والدولة الأخليمية يُسمَّى كورَش، وكانت فترته ممتدةً في القرن السادس قبل الميلاد، أي إننا نتحدَّث عن عام ٥٣٠ ق.م، وقد كان الرمز الذي بنى أكبر إمبراطورية عرفتها البشرية في ذلك الوقت، وهي الإمبراطورية الفارسية التي امتدَّت حتى شرق أوروبا ووسط آسيا، مرورًا بالقوقاز ومصر وليبيا والسودان.



ثم جاء حفيده داريوس، وكان يُسمَّى داريوس العظيم أو داريوس الأكبر، بحيث حكم ٣٤ سنةً وبنى الإمبراطورية بناءً محكمًا وعظيمًا وأدارها بنظامٍ إداريٍّ عظيم. فقد بنى طرقًا سريعةً كانت تمتدُّ إلى آلاف الكيلومترات، حتى قيلَ إن الطريق الذي بناه من أكسس

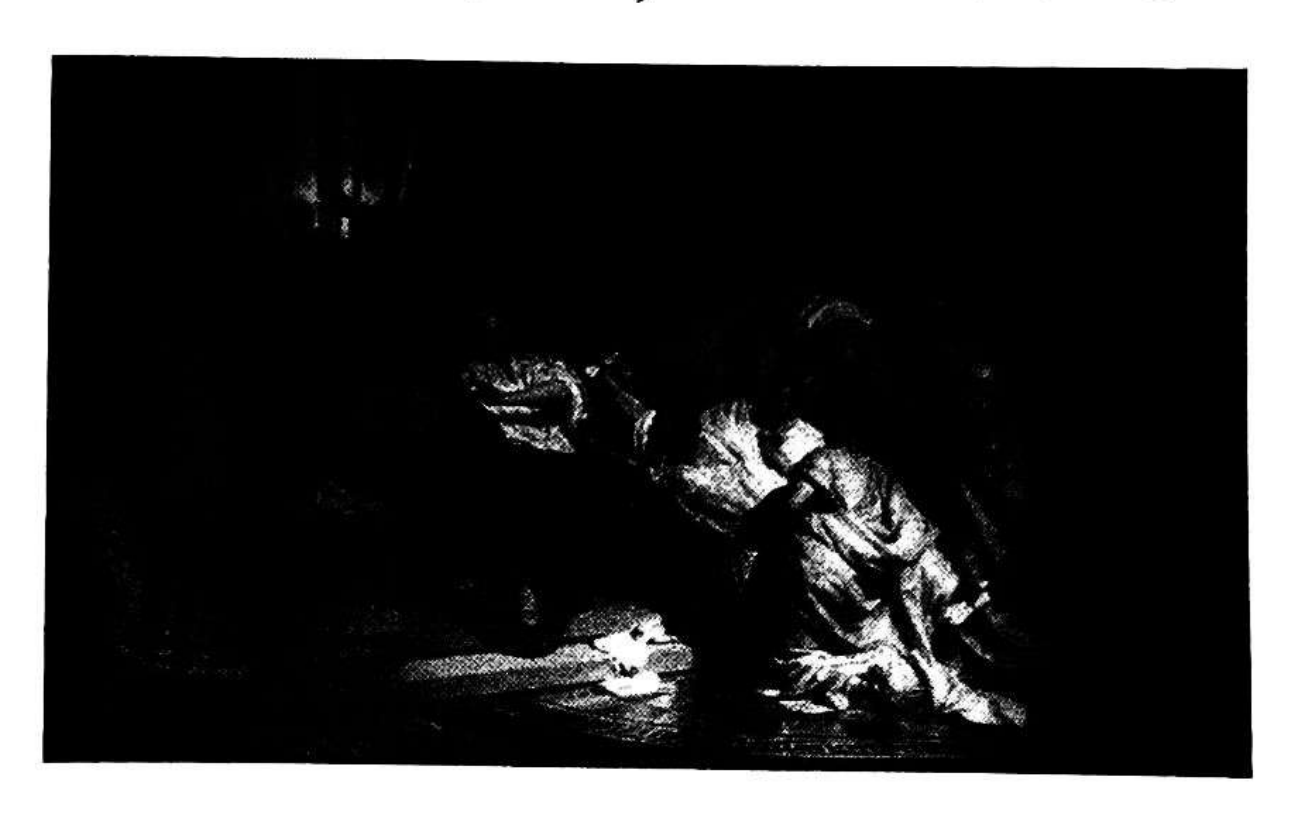
مرورًا بإزمير في تركيا ووصولًا إلى وسط آسيا، كان طوله يبلغ آلاف الأميال. وكانت هذه الطرق تُستخدم للتجارة، ويقال إنه أولُ من بنى قناةً ربطت البحر الأحمر بالبحر المتوسط وهكذا. بالإضافة إلى ما ذُكر عن إسهامه المحوريِّ في بناء التشريعات والنُّظُم والقوانين.

وقرأت عن سيرة الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٠ ق.م، الذي يُعَدُّ أعظم شخصية في التاريخ العسكري الأوروبي والرمز الأهم الذي أثَّر في الوعي الاستراتيجي الأوروبي. حيث بنى إمبراطوريةً واسعةً امتدت من وسط الهند، وأخذ مصر، وبنى في ثماني سنواتٍ إمبراطوريةً واسعةً.

ويُعَدُّ الإسكندر المقدوني حاليًّا رمزًا قوميًّا وطنيًّا جامعًا لليونان. ولعل من الطرائف أنك إن حاولت أن تنتقص منه عند أيِّ يونانيٍّ سيغضب غضبًا شديدًا وربما يعتدي عليك بالضرب إذا حاولت أن تقول شيئًا كهذا. أضف إلى ذلك أن الصراع بين ماسادونيا واليونان كان يدور حول هوية الإسكندر. فنحن نسميه المقدوني، لكنَّ اليونانيين يرفضون أن ينسب إلى مقدونيا (ماسادونيا الحالية). وقد حاولت هذه الأخيرة أن تبني تمثالًا له في وسط العاصمة، فقاطعتها اليونان وأجبرتها على أن تغيِّر اسمها حتى لا تستأثر به وتدَّعي أن الإسكندر منها، وضغطت من أجل منعها من دخول الاتحاد الأوروبي. واضطرت ماسادونيا إلى تغيير الدستور وإعادة تسمية نفسها بـ «شمال ماسادونيا» حتى تدخل الاتحاد الأوروبي وترفع اليونان الحظر عنها. فانظر إلى قدر هذه الشخصية ومحوريتها في الوعي اليوناني.

ثم ننتقل إلى سيزر قيصر، وهو أعظم شخصية رومانية، ثم ابنه أوغسطس الذي أصبح الإمبراطور من بعده، فهؤلاء جميعًا اقترنت

أسماؤهم بمصطلح «الأكبر»، فنقول: داريوس الأكبر، والإسكندر الأكبر، وسيزر الأكبر (قيصر). وقد خلد التاريخ هؤلاء لما أسهموا فيه من تشييدٍ للإمبراطوريات وتسطيرٍ للملاحم.



ثم نأتي من بعد ذلك إلى وقتنا الحاضر، ونرى شخصياتٍ حاولت أن تفعل أشياء كثيرة جدًّا، وأن تبني إمبراطورياتٍ أيضًا، وأن تخوضَ حروبًا ضخمةً. فما المشترك بين كل هؤلاء الزعماء في العالم؟

«الاستيلاء والاستعلاء».. وصفة تغيير خارطة التاريخ

يُعَدُّ المشترك بين أولئك الزعماء هو أنهم استخدموا الجيش لكي يوسعوا نفوذهم ورُقع أراضيهم. فقد أعاد كلُّ هؤلاء رسمَ الخرائط العالمية، وضموا إليهم الأراضي، وأقاموا إمبراطورياتٍ ضخمةً وغنيةً جدًّا، وبنوا طرقًا ومعمارًا هائلًا جميلًا. ولكن أساس كل ذلك انبنى على سلطةٍ ترتكز على الفعل العنيف والعمل القائم على الصراعات العسكرية.

ولذلك يغفل المؤرخون عن عددٍ من النقاط الأساسية:

• أولًا: إن معظم هؤلاء في الحقيقة احتلوا شعوبًا ونهبوا خيراتها، وعرفت عواصمهم الثراء من جرَّاء نهب خيراتِ تلك الشعوب.

• ثانيًا: إنهم في احتلالهم لهذه الشعوب سلبوا إرادتها في تقرير مصيرها.

• ثالثًا: إنهم في الحقيقة استطاعوا أن يبنوا شخصيةً قوميةً قائمةً على تراتبية اجتماعية طبقية.

فالرومانيون في زمن قيصر - على سبيل المثال - كانوا يلقون معاملةً خاصةً في كل بقاع العالم، على خلاف باقي الأعراق التي كانت تندرج تحت حكم الرومان، والتي كانت تُعامل بوصفها طبقاتٍ من الدرجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة من المواطنين، وتعاني من الاضطهاد وعدم سريان القوانين عليها كما تسري على الرومان؛ لأن الرومان شعبٌ له قيمته الخاصَّة آنذاك، بحكم القوة العسكرية والنفوذ العالمي المختلف للدولة التي ينتمون إليها.

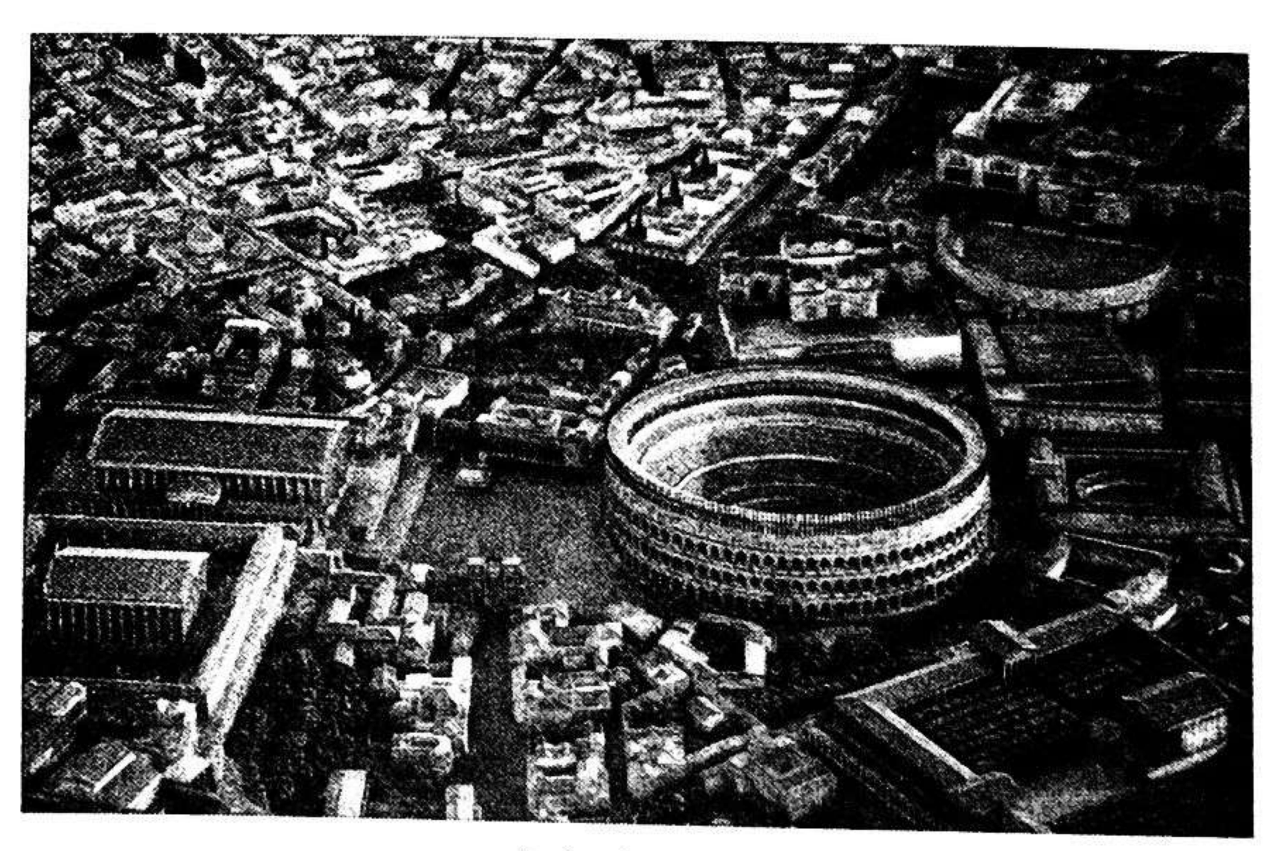
ولو كنتَ يونانيًا أو مقدونيًا من أتباع الإسكندر المقدوني في زمنه آنذاك، لكنتَ مميزًا عن بقية الخلق في تلك اللحظة؛ لأنك تنتمي إلى ذلك العرق النبيل المستعلي الذي يقوده رجالٌ من أمثال الإسكندر. ولو كنتَ في زمن داريوس وكورَش وجستنيان الإمبراطور البيزنطي في عام ٥٤٠م، والذي عمل أيضًا في الدولة البيزنطية وبناها بالشكل الذي تعرفونه، لكان الوضع كذلك أيضًا.

أما ما عدا هذه الأعراق، فكانت تُطلق عليهم أوصاف وألقاب دونية: من همج ومتوحشين وبرابرة Barbaric. حيث كانت الدولة الرومانية تستخدم هذه المصطلحات دائمًا، فالشعوب المنضوية تحت الدولة الرومانية وحدها - في منظورهم - هي من تدخل في خانة

النبلاء والمتحضرين، أما الشعوب التي لا تنضمُّ إليها ـ أمثال القبائل الجرمانية Germanic tribes ـ فكانت تُعَدُّ همجيةً Barbaric ؛ ولذلك جاز أن يُفعل بهم كل شيء، كأن يُقتلوا ويبادوا وتُقتل نساؤهم وتُغتصب؛ لأنهم مجرَّد شعوب همجية غير متمدنة barbaric nations .

فكانت هذه التراتبية هي أساس الاستعلاء الذي بنى عليه الأباطرة إنجازاتهم التاريخية، وظلَّت هذه العصبية هي النمط السائد في توسُّعهم حول العالم.

من هنا يمكن أن نعتبر هاتين الإمبراطوريتَيْن ارتكزتا على معطيين: الأول هو مركزية السلطة، والثاني هو تجميع الموارد في مراكز دولهم (أي عواصمهم). فتجد روما بديعةً جدًّا ولكن أطرافها فقيرة، وتجد اليونان مزدهرةً دون بقية الأراضي التي فتحها الإسكندر، وهكذا.



روما في عهد قسطنطين

ومن ثَمَّ فمركزية السلطة والمال، بالإضافة إلى الاستعلاء العرقي أو القومي على بقية الأعراق التي تحكمها الإمبراطورية، هي سماتٌ مشتركة بين معظم القوى التي غيَّرت خرائط التاريخ، إلَّا أن النبي ﷺ قد غيَّر هذه الخرائط ولكن بمنهجٍ مختلفٍ.

«منهج فريد» في تغيير خارطة التاريخ

بُعث النبي ﷺ في قريةٍ صغيرةٍ نائيةٍ بعيدةٍ عن مراكز الثقل السياسي العالمي، إلَّا أنه استطاع خلال سنواتٍ قليلة (٢٣ سنةً) أن يوحِّد جزيرة العرب التي لم يسبق لها أن وُحِّدَت تحت رايةٍ واحدةٍ، وامتدَّ تأثيره بعد وفاته ﷺ بعد سنتين فقط، لتبدأ الفتوحات الكبرى التي أخضعت الدولتَيْن الكبريين (الفرس والروم) أو أجزاء مهمَّة منهما.

ولهذا فقد غيَّر محمَّد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام التاريخَ وغيَّر خرائطه، ولكنه فعل ذلك بمنهجٍ فريدٍ، وهو ما سنفصل فيه فيما يلي.

فما الفريدُ في منهج محمَّد ﷺ؟!

حين نتحدَّث عن المنهج، فإن المقصود به رؤيته وتفاعله مع القوى المختلفة: تحالفاته ومحادثاته ومراسلاته وغزواته وسراياه ورؤيته للعالم.

إن المتعارف عليه اليوم، هو أن كلَّ شيء ذي علاقةٍ بالمنظومة الدولية قائمٌ على الصراع والتنافس في الأصل، فهل طبَّق النبي ﷺ هذا المفهوم؟ وهل مركَزَ السلطة والمال؟ وهل قدَّم أُمَّةً على كل الأُمم التي وصلها الإسلام في زمنه أو زمن صاحبيه أبي بكرٍ وعمر (باعتبار أن هاتين الفترتين كانتا امتدادًا استراتيجيًّا لسيرة النبي ﷺ من

الناحية المنهجية)؟ وما الذي يميز النبي ﷺ؟ وما الفرق بينه وبين من ذكرنا ممَّن أعادوا بناء العالم وشكَّلوا خرائطه؟

إن أول ما ينبغي استيعابه في هذا السياق، هو أن محمدًا ﷺ رسولٌ ونبيٌّ، وهذه مسألة مهمَّة. ولذلك ينبغي ألَّا ننسى أن الرسالة هي نقطة البداية دائمًا، وذلك على الرغم من فعله الاستراتيجي والسياسي المميز وما صاحبه من إنجازاتٍ في البنى والنُّظُم الاجتماعية والاقتصادية.

فهذا نبيٌّ لا يريد علوًّا في الأرض من خلال الفتوح أو إخضاع الأُمم، ولا يريد علوًّا لقومه المُخصصين - من أبناء قريش أو مكة أو حتى الأنصار - على بقية الأُمم الأخرى، ولا يريد ثراءً كما كان يفعل الأباطرة الذين كانوا يبنون ملكهم بجلب المال من الأراضي المفتوحة إما نهباً أو عن طريق الضرائب أو الغزوات.

فكما قلنا، كان التكليف الإلهي الأساسي للنبي ﷺ منذ اللحظات الأولى هو أنك يا محمَّد رسولٌ للناس كافةً وأنك رحمة للعالمين. لهذا بُنيَ النبيُّ ﷺ بناءً نفسيًّا منذ البداية على أنه نبيٌّ وأن رسالته متعديةٌ لقومهِ المباشرين، وأنها لا تشمل البشر فحسب، بل الخلق جميعًا، للعالمين.

بالإضافة إلى أن الرسول ﷺ ليس كبقيةِ الأنبياء من قبله، حيث قال الله تعالى في خطابٍ لأتباعه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فعندما تكون يا محمَّد خاتم الأنبياء بمعنى أنك خاتم الرُّسُل، فإن رسالتك هي خاتمةُ الرسالات وأنت بذلك خاتم المرسلين، فرسالتك فاعلة في الأرض إلى قيام الساعة، وكل قولٍ أو فعلٍ ستقوم به الآن ينبغي أن يأخذ بالاعتبار هذا المستقبل الممتد لعصور طويلة قادمة.

فهذه العناصر الثلاثة التي ذكرناها تشكِّل منهجًا جديدًا؛ لأن معنى «أن تكون للناس كافَّة» هو أن تشريعاتك وتقديرك للأمور وقراراتك المتعلِّقة بتصرفاتك اليومية وتصرفاتك السياسية والاستراتيجية لا تأخذ بعنصر البراغماتية الآنيَّة كما يفعل الساسة عادةً، ولا بالتقدير الاستراتيجي متوسط أو قريب المدى كما يفعل القادة الكبار، وإنما تأخذ بالاعتبار أن كل فعلٍ أو قولٍ تقوله الآن منعكسٌ حتى قيام الساعة على كل من سيأتي بعدك متبعًا للرسالة نفسِها التي جئت بها، وهذا لعمري أُفق من الزمن لم يأخذه بالاعتبار من الخلق أحدٌ.

ورغم ما يشكِّله ذلك من عبء نفسيٍّ ثقيلٍ ورؤيةٍ للأمور بشكلٍ مختلف، فإن حسابات النبي ﷺ ظلَّت مختلفةً عن حسابات القادة والزعماء والفاتحين؛ لأن مُحركها ليس الطمع في النصر ولا بناء الدولة ولا تحقيق إنجازاتٍ قومية أو من أجل تحقيق منزلة في التاريخ كفيلة بكتابة اسمه على جدران المعابد والمسلات الذهبية. *وإنما كان ﷺ يفعل الفعل ويتأمل في وقعهِ على الإنسان حتى قيام الساعة، باعتباره آخرَ نبيٍّ، وبما يحقِّق للناس والوجود كلِّه من رحمة ومنفعة.*

إن هذه المعادلة هي التي بنت الوعي النفسي للنبي ﷺ، وانعكست من بعد ذلك على تصرفاته السياسية والاستراتيجية والاجتماعية والإنسانية.

ولو أدركنا التركيبة النفسية للقيصر الأكبر في روما ـ على سبيل المثال ـ سنجد أنه كان يريد المجد؛ لأنه كان يحبُّ أن يصل إلى منزلة لم يصلها من قبل أحد؛ ولذلك احتلَّ جزءًا كبيرًا من أوروبا، ثم أعلن نفسه دكتاتورًا في روما، وتولَّى ابنه بالتبنِّي أوكتافيوس بناء الإمبراطورية. فكان مجده الشخصي هو الدافع الرئيس.

وكان بعض الأشخاص يندفعون لمجدهم الشخصي ولحبهم لقومهم (الفئة التي ينتمون إليها)، إلَّا أن النبي ﷺ لا ينطبق عليه كل ذلك، وإنما ينطبق عليه معنى أنه رسولٌ للعالمين وللناس كافَّة وأنه خاتم المرسلين، وأنه مُكلَّف بأخذ هذه العناصر الثلاثة وتنزيلها على الأرض التي يعيش فيها، في الزمان والمكان في مكة، وفي توازنات القوة السائدة في بداية القرن السابع الميلادي.

التفاعل مع الواقع «على كرسي التنفيذ»

هنا يأتي أمتع ما في دراسة الأبعاد الاستراتيجية في السيرة النبوية حقيقةً؛ لأنك تستطيع أن تتوقَّع كيف يتصرف القائد العادي، وتستطيع أن تتوقَّع كيف يتصرف السياسي العادي، لكنك الآن أمام نموذجٍ جديدٍ ومختلفٍ عن النماذج الأخرى.

فرغم كونه قائدًا هو الآخر، يتفاعل مع المكونات نفسها التي يتفاعل معها الآخرون؛ يبني تحالفات وائتلافات، ويدرك موازين القوة والإطار الدولي، ويستوعب منظومة الأعراف والقبائل، إلَّا أنه رسولُ رحمة وأُسوة لكل الناس حتى قيام الساعة؛ فهذه ثنائية فريدة ونقطة تأمُّل بديعة.

كيف ينضبط هذا الواقع السياسي؟

ينضبط هذا الواقع السياسي بمجموعة من الأساسيات: بموازين القوة أولًا، وبخريطة تحالفاتٍ ثانيًا، وبتحديدٍ للأولويات ثالثًا، وبإدراكٍ للمآلات رابعًا. *ويصبح لكلِّ ما سبق صبغة خاصَّة حين يكون الجالس على كرسي التنفيذ هو نبي خاتم للمرسلين، ومرسل رحمة للعالمين.*

ولذلك أريد أن أشعركم بعظمة الموقع في تلك اللحظة من

الزمن، بفهم هذه الأبعاد الثلاثة ودورها في تشكيل شخصية النبي ﷺ، وأن ندرك أن هذه الأبعاد الثلاثة لم تصنع فلسفةً طوباويةً متعاليةً مثل تعليمات بوذا أو ماني أو زرادشت، أو تعليمات كثيرٍ من المصلحين الكبار الذين جاءوا في التاريخ، وإنما صنعت تفاعلًا مع واقعٍ حقيقيٍّ بأدوات ذلك الواقع، وهذا أمر مميز جدًّا، وهو ما يشكِّل أهمية دراسة سيرته ﷺ والربط بين تفاصيلها.

«أمل المساومة».. إعلان حازم نهائي وقاطع

رأينا كيف رسخ الله ﷻ في ذهن النبي ﷺ منذ اليوم الأول مسألة أن تفاعله السياسي والاستراتيجي وموازين القوة ولقاءه مع القبائل ودعوته وهجرته وما إلى ذلك، ما هي إلَّا تقدير يُبنى وفقًا للأحداث التي تجري في زمانه، بالرغم من وجود مجموعةٍ من القواعد التي ينبغي أن ينتبه إليها وألَّا يتعداها على الإطلاق.

وأول هذه الحدود هو أنه لا مداهنةَ في أمر الدين، فهذا موضوع محسوم. فبإمكانك أن تتكلَّم بطريقة ليِّنة، وتحاول أن تدخل مداخل حسنة، وتبني تحالفاتٍ جميلةً، وحتى بإمكانك أن تدخل في جوار أحد الكفار (مثل دخول النبي ﷺ في جوار مُطعم بن عُدي عندما كان كافرًا)، وبإمكانك أن تتحالف مع بعضهم (كما فعل مع خزاعة)، ولكن عندما يتعلَّق الأمر بالدين فإياك أن تداهن أو تساوم كما نبَّه الله ﷻ حين قال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

فقد كانت قريش تودُّ لو أن النبي ﷺ جاملها في الدين قليلًا، فقد دخلت قريش في مفاوضاتٍ طويلةٍ لحلِّ الأزمة مع النبي؛ لأنها قبيلة تجَّار، والتجَّار يميلون إلى الاستقرار، وهذا يسري على أيِّ عاصمة تجارية أو مجتمعٍ تجاريٍّ؛ إذ تجد أنهم يميلون إلى المساومة

ومحاولة وجود خطٍّ مشتركٍ لنزع فتيل أزمةٍ يرونها مدمرةً لاقتصادهم ومعاشهم.

لذلك كانت قريش تطمع أن تصل إلى معادلة سلميَّة مع النبي ﷺ لتحلَّ الصراع الداخلي في قريش؛ لأنها تريد ألَّا تصطدم مع بني هاشم الذين وقفوا معه، وبني عبد مناف، وحلف المطيبين عمومًا.

فقد حاولوا كلَّ المحاولات مع النبي ﷺ، وقد كان ليِّنًا في كلامه معهم في كل شيء، لكن حزمهُ ظهر ما إن وصل الأمر إلى العقيدة.

فعندما جاءوا ليقولوا له: يا محمد، ما رأيك أن تعبد إلهنا يومًا ونعبد إلهك يومًا؟ كانت هذه مسألة منتهية لا مساومة فيها، وكان من أوائل ما نزل قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ٩ ـ ١٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦] وكان ذلك إعلانًا حاسمًا وقاطعًا لا هوادة فيه ولا تهاون.

لقد كان المشركون يحاولون قدر المستطاع إيجاد حلٍّ مع النبي ﷺ، فقالوا: ما رأيك يا محمد في أن تعبد إلهنا يومًا ونعبد إلهك يومًا؟ وإذا أردت أن تعبد إلهك اعبده في بيتك، فهناك من الناس من هم أحناف مثل ورقة بن نوفل وغيره، ليسوا على دين قريش، ولا يسألهم أحد؛ لأنهم جالسون في منازلهم، ولا مشكلة لدينا معهم.

لكنك أتيتَ بما يفسد علينا منظومتنا الاجتماعية والاقتصادية، تتكلَّم مع عبيدنا وتحولهم إلى أُناس يناطحون الأسياد، وتنتقد النظام القائم على السؤدد والزعامة القرشية المتحكِّمة في الضعفاء، وتحاول

أن تبعدنا عمَّا قامت عليه الاستثنائية القرشية من استعلاء وسؤدد وتفاخر بالأحساب. ثم إنك تدعو إلى إله واحد، فكيف إذا وافقناك على ذلك وخسرنا بقية العرب ممَّن يعبدون آلهةً متعدِّدةً؟ وهذا البيت الذي يؤمونه جميعًا على اختلاف آلهتهم هو أصلُ تميزنا، يحجون إليه، فيحققون لنا معشر قريش المكانة والمال؟

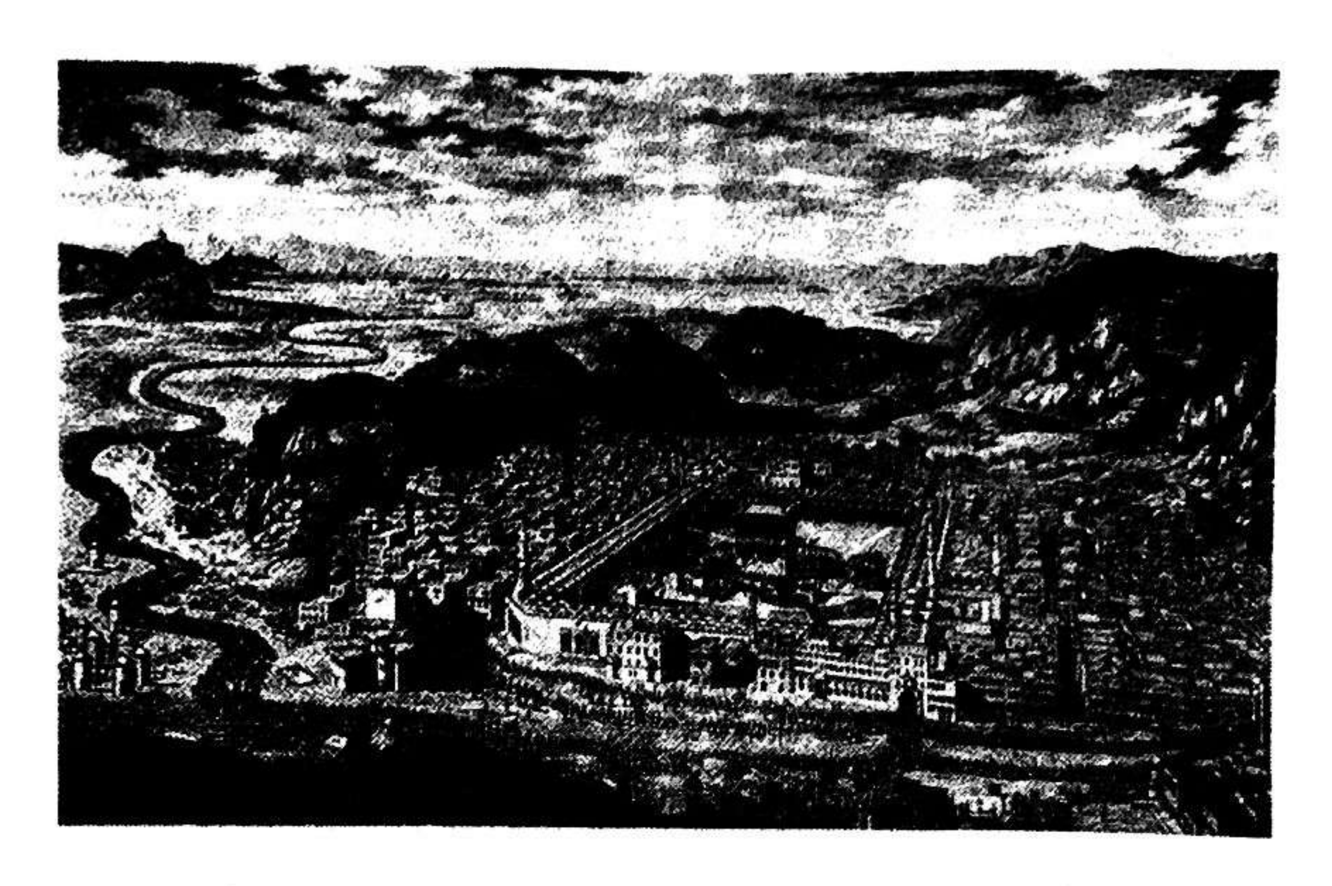
أصبحت قريش تعادي النبي ﷺ؛ لأنهم رأوا في ما يقوم به خطرًا على تميزهم ومكانتهم، وهذه مسألة مهمَّة، فأرادوا مساومته على الدين قليلًا، فنزل الإعلان في (سورة الكافرون) حتى يقطع أملهم في المساومة على الدين. فكان إعلانًا بسيطًا، لكنه حازم وقاطع ونهائيٌّ ومُكرر بشكلٍ واضحٍ تمامًا، لكل أعمى أو أصم، ليؤكِّد أن الموضوعَ منتهٍ. لهذا فعندما يُتْلى مثل ذلك الإعلان فأنت وضعتَ حدًّا لا يمكن إطلاقًا لأحدٍ أن يفكر في أن يقطعه، فهناك مساحات للمساومة لكن لا مساومة في الدين.

لقد كان اعتقاد النبي ﷺ لا يُساومُ عليه، ومبادئُ دينه لا يساوم عليها. لذلك كان على قريش أن تعي أنهم ليسوا أمام تاجرٍ يريد أن يحقِّق مجدًا أو سؤددًا كما كانوا يظنون، ولا تميزًا على بقية أقرانه أو على قومهِ، ولا مُلكًا كما اعتقد بعضهم في لحظةٍ من اللحظات.

وإنما هم أمام رسولٍ لربِّ العالمين، وتكليف الرسول هو حمل دين الله ﷻ، ومهمته تبليغ ما أُرسل به وما أُنزل عليه من ربِّه، وهذا هو أساس الأمر وجوهره.

مساحات «اللين والحزم»

صاحبت هذه القاعدة النبي ﷺ في جميع تصرفاته؛ إذ حدَّدت مساحات التعاطي واللين ومساحات الحزم، وسأضرب لكم بعض الأمثلة السريعة.



بعدما فُتحت مكة ثارت قبائل هوازن وثقيف بعد أيامٍ قليلة (ثقيف مركزها مدينة الطائف)، وكانت المدينة الثانية في الحِجاز، وهي ذات قوة ومنعة؛ لأن فيها حصونًا.

فقام النبي ﷺ بعد حنين بحصارها خمسة عشر يومًا، ولم يستطع أن يفتحها، فانسحب منها وعاد إلى المدينة المنورة. وبعد وقتٍ من الزمن، وبفضل استراتيجيات حصار ومشاغلة وضعها النبي ﷺ، اضطروا أن يأتوه مستسلمين.

والجدير بالتذكير أن نعود إلى علاقة النبي ﷺ القديمة بالطائف، فقد حاول في السنوات الأولى من البعثة أن يذهب إليهم ليطلب منهم أن ينصروه وأن يؤووه في رحلة الطائف التي هاجر فيها النبي ﷺ بعد موت خديجة رضي الله عنها وعمِّه أبي طالب.

كما حاول أن يلجأ لمكانٍ آخر خارج مكة؛ لأنه أيقن أن أبوابها قد أُغلقت أمام الدعوة، فذهب إلى الطائف وبدأ حوارًا مع

أهلها، لكنهم - بقيادة زعيمهم آنذاك عَمرو بن عبد ياليل - أهانوه واستهزأوا به، قائلين: إن كنتَ نبيًّا من عند الله فنحن لا نستطيع أن نتحدَّث معك؛ لأنك أعلى منَّا بكثير، فأين نحن منك. وقالوا: ألم يجد الله أفضل منك أو أشرف منك في قومك حتى ينزل عليك الرسالة؟ فلماذا - وأنت من دون جاه ولا مال - لم ينزل على شخصٍ عظيمٍ من القريتَيْن (أي مكة والطائف)؟ ثم طُرد ﷺ واعتُدِيَ عليه، وسالَ الدَّم من قدميه الشريفتَيْن.

وعندها قال حديثه الجميل البديع ودعاءه الرائع الذي نعرفه جميعًا: «اللهم إني أشكو إليك ضعفَ قوّتي وقِلَّةَ حيلتي وهواني على الناس، يا رب المستضعفين...». وكان زعيم الطائف عمرو بن عبد ياليل، وكان شابًا صغيرًا عمره ٢٣ سنةً عندما طرد النبي، إلَّا أنه كان قد كبر في السنِّ عندما حاصر النبي ﷺ الطائف، وبدأت ثقيف تفكِّر في كيفية الخروج من هذه المشكلة. فاتفقوا على أن يرسلوا وفدًا لمفاوضة النبي ﷺ بزعامة الرجل نفسِه.

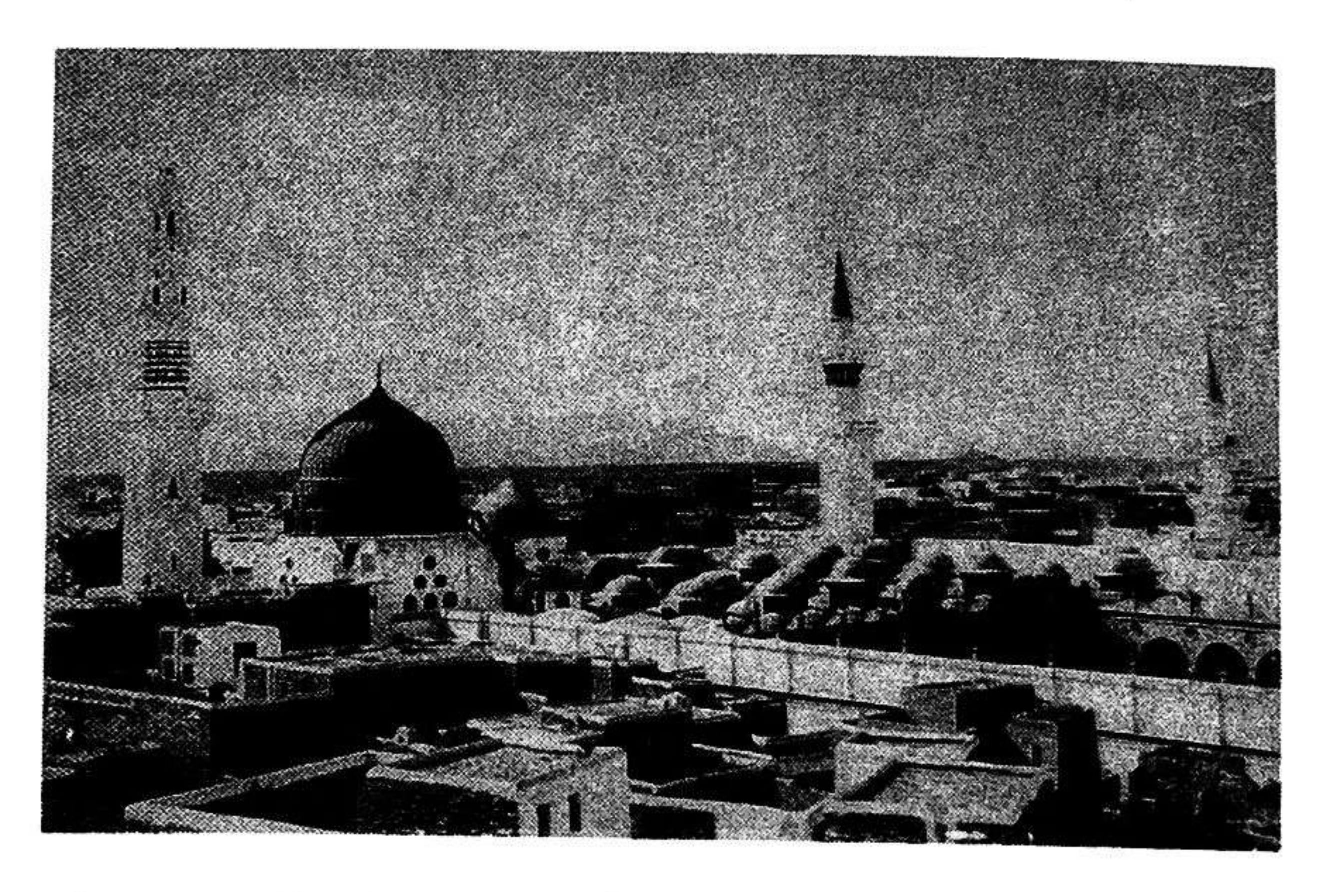
ولو كان في مكانه أيُّ أحدٍ آخر لظنَّ أن النبي سينتقم منه نظير الإهانة التي كان قد تعرَّض لها، ولكنه كان يعرف عن أخلاق النبي ﷺ وأنه كان يعفو عمَّن جاءه، ثم إنه ﷺ يحترم قواعد السفراء ولم يكن يقتل سفيرًا أيًّا كانت القبيلة ولو كانت تحاربه. فذهب الوفد وعلى رأسهم عمرو بن عبد ياليل ليجلسوا مع النبي ﷺ.

وقد كان السياق يجعل من إسلام الطائف إنجازًا تاريخيًّا واستراتيجيًّا عظيمًا؛ نظرًا لأنه إنهاءٌ لآخر جيبٍ مسلَّح في الحجاز، فإن أسلمت الطائف قامت دولة المدينة لتكون عاصمةً لجزيرة العرب بلا منازع.

فاستقبلهم النبي ﷺ وأكرم وفدهم ونصب لهم خيمةً في المسجد

(وكانوا كفارًا)، وأقاموا في بيت المغيرة بن شعبة، وكان ثقفيًا هو الآخر. وأمر ﷺ بطبخ الطعام لهم وأن يُكرموا في بيت المغيرة بن شعبة.

أما التفاوض فكان يتمُّ في المسجد، فيقضون معظم يومهم في المسجد يتفاوضون، ولم يكن التفاوض يتمُّ مباشرةً مع النبي ﷺ، فهذه أصول التفاوض عندهم، فكان بينهم وساطة بقيادة رجل يُسمَّى خالد بن سعيد بن العاص وكانت أُمُّه ثقفية؛ ولذلك كان يعتبر مقبولًا باعتبارهم بمثابة أخواله.



قال الوفد: يا محمد، نحن نريد أن نسلم، ولكن لدينا شروط:

- أولًا: أن تبيح لنا الزنا، فإننا قومٌ لا نصبر على النساء.

- ثانيًا: أن تبيح لنا الخمر؛ لأن كل اقتصادنا قائمٌ على العنب، وأهم خمر يُصنع في الجزيرة هو خمرنا.

• ثالثًا: نبقي الربا، والطائف كانت مدينةً للخدمات المالية لقريش، وبالفعل كانت تقوم على الربا، وكان زعماء قريش يذهبون إليها للاصطياف لجمال الجو وبرودته، والسياحة فيها مبنيَّة على الخمور والنساء والمتعة، فكانوا متمسكين بهذه الأشياء تمسكًا شديدًا.

• رابعًا: موضوع الصلاة ثقيل علينا، خمس صلواتٍ كثيرة فنريد أن تراعينا.

وننبِّه هنا إلى أن الوضع آنذاك كان في مصلحة النبي الذي كان منتصرًا، وقد كانت كل قبائل العرب تدين له، وكانت مكة وقتها قد فُتحَت. وكان حصار الطائف فعالًا؛ لأنهم لم يستطيعوا اقتصاديًّا أن يفعلوا شيئًا، وقد جاءوا لرؤية النبي وقرار الإسلام قد اتُّخِذ وإلَّا لَما كان هناك من داعٍ للمجيء، ولو كان من يستقبلهم شخصًا آخر لربما تصرف معهم بعنفٍ وغلظة.

ومع هذا، كان النبي ﷺ كريمًا لطيفًا يتحدَّث إليهم لأيام طويلةٍ، وهو يحاورهم في كل نقطة ليقنعهم بأن هذا الكلام لا يجوزَ في خلق العرب ولا يستوي في مصلحة الإنسان السوي.

فقالوا: حسنًا، نوافق على موضوع تحريم الزنا والخمر، وبدأوا بالتراجع إلى أن وصلوا لموضوع عقيدتهم (وهو مربط الفرس)، فحاولوا المساومة على عبادتهم لصنمهم الشهير وقتئذ: اللات، وقد كانت أهم من العُزى في عرف العرب، وكان مركزها في الطائف وقد بنوا لها بناءً يشبه الكعبة، وكان يزورها الحجاج ويعظمونها ويقدمون لها الصدقات، فكانت مكسبًا كبيرًا للطائف على كل الأصعدة. فقالوا: أما ربَّتُنا (يقصدون اللات) فلا نهدمها! فطلبوا أن يدعها لهم لثلاث سنين وبعدها سيتصرفون.

فقالوا له: أما اللّات فثلاث سنين، فقال لهم: لا هذا غير مقبول، فقالوا له: حسنًا دعها سنة واحدة وراعنا، وكان منطقهم الذي حاولوا تبرير موقفهم من خلاله أنهم شخصيًا سيسلمون، لكن عندما يعودون إلى أهلهم سيجدون منهم ممانعةً شديدةً فهم يعبدون اللّات، ويعتقدون أنها يمكن أن تؤذيهم إن هم هدموها، فمنطقهم هو: دعنا نحن نصبح مسلمين، ونُبقي على اللات حتى يتعوَّد الناس الإسلامَ وبعدها نهدمها.

لكن النبي ﷺ ردَّ بالرفض القاطع، فقالوا: حسنًا ثلاثة أشهر، فقال: لا يجوز، قالوا له: شهر، فرفض النبي ﷺ. فالإسلام واحد، فلا يوجد إسلام خاصٌّ بأهل الطائف وإسلام خاصٌّ ببقية البشر.

فقالوا: إذن لنا طلب أخير، ألَّا تأمرنا بهدمها بأيدينا، فأرسِل غيرنا ليهدمها، عندها وافق ﷺ فهذا لا يمس قواعد الدين. فلمَّا عادوا إلى ثقيف، حاولوا إقناعهم من خلال حيلة، فقالوا: نحن جئنا من عند رجلٍ قد دانت له العرب (وكان ذلك بعد تبوك)، وهو الآن يحارب الروم، وهذا رجلٌ قاتل وفظّ وغليظ، وقد فاوضناه لكنه أصرَّ أن نهدم اللّات فرفضنا؛ لأنها ربَّتُنا ويستحيل أن نهدمها، وخرجنا من عنده من غير اتفاق.

عندها قالوا لهم: أحسنتم صنعًا! فنحن لن نهدم اللات أبدًا!

ثم استأنف الوفد حديثهم فقالوا: وهو الآن يحضر الجيوش ليحاصرنا، ونحن مستعدون لأن نحاصَر حتى نموت دفاعًا عن ربتنا، ولو استمرَّ الحصار علينا سنتين، فقوموا على الفور لبناء الأسوار وترميمها وإحضار الطعام إلى الداخل لتخزينه بما يكفي سنتين على الأقل.

فوافق أهل الطائف على ذلك، وبدأوا بتحضير أنفسهم. وبعد

بضعة أيامٍ راجعوا موقفهم قائلين: لو حوصرنا سنموت من الجوع، فعادوا إلىَ الوفد، واقترحوا أن تتمَّ جولة جديدة من المفاوضات، وأن يتمَّ عقد اتفاق مع محمَّد، فالحصار الطويل مدمِّر للبلد، عندها أخبروهم بالحقيقة، وأن اللّات ستُهدم فعلًا، ولكن ليس بأيدي أهل الطائف أنفسهم.

حينها وصل اثنان كلَّفهما النبي ﷺ بالمهمَّة، هما: أبو سفيان الخبير بالطائف (لأن لديه زوجة من الطائف ويملك مزرعة هناك وهو تاجر كبير)، والمغيرة بن شعبة (وقد كان من أصحاب رسول الله الأوائل، وكان قد هرب من الطائف وأسلم، وكان من دهاة العرب الكبار، فله مهارة دبلوماسية وفطنة غير طبيعية، هو وعمرو بن العاص).

فأراد المغيرة أن يخدع أهل ثقيف ليهزأ بهم، فحمل الفأس وصعد على رأس اللّات وبدأ بضربها. وكان كل أهل الطائف جالسين في حزنٍ على هدم ربَّتِهم، وكانوا يعتقدون أن شيئًا سيحدث وأن اللّات ستُدافع عن نفسها.

فلمَّا ضرب الرأسَ ضربته الأولى مثَّل أنه خرَّ على الأرض صريعًا، فصاحَ أهل الطائف تعظيمًا للّات؛ لأنها قد انتصرت على الذي يريد هدمها. وبعد برهة وقف المغيرة ضاحكًا فقال لهم: يا معشرَ ثقيف، لقد كانت تقول العرب إنكم أعقلُ الناس، واللهِ إني أراكم أحمقَ الناس، هذا حجرٌ لا يضرُّ ولا ينفع ولا يدري من عَبَده ومن لم يعبده، ولقد هدمنا العُزّى وهُبل، فما دافعت عن نفسها ولا فعلت شيئًا، فهل تُدافع هذه الحجارة عن نفسها؟ وهدمها ودمَّرها واستقرَّ الأمر للإسلام في الطائف.

«حجر الأساس» في كل تصرفٍ استراتيجيٍّ

لقد كان ثبات النبي ﷺ على هذه المبادئ محسومًا، رغم استمراره في مناقشة خصومه ومحاورتهم باللِّين فيما يتعلَّق بالأسلوب والطريقة. وقد ظلَّ أمر الدين بلا تنازل.

وكان النبي مرنًا في الشأن العام عمومًا، لا سيما في تعيين الأمراء على القبائل، فلم يغيّر التركيبة القيادية تغييرًا جوهريًّا؛ فكانت هوازن مثلًا - رغم أنها هُزمت من الرسول ﷺ - بقيادة مالك بن عوف، فلمَّا أسلم عيَّنه هو نفسه أميرًا عليها؛ وكان جزء من طيّ كافرًا وكان زعيمها عدي بن حاتم الطائي نصرانيًّا، فعيَّنه النبي ﷺ أميرًا عليها.

وكذلك غطفان، مع العلم أن زعيمها كان عيينة بن حصن، وهو المسمَّى الأحمق المطاع، فأبقاه النبي ﷺ زعيمًا على قومه. وكذلك الأقرع بن حارث أقرَّه النبي أميرًا على تميم، والعباس بن مرداس على سُليم، إلى غير ذلك. *لقد بقي النظامُ السياسي قائمًا على ما هو عليه، لكن بقيم جديدةٍ وتبعيَّة عامَّة للمركز الجديد في المدينة، الذي كان تحت قيادة النبي ﷺ.*

أما بقية الزعماء الذين ذكرناهم في المقدمة، فلم يكن لديهم مهمَّة أو تكليف إلهيٌّ معيَّن، فكانوا يرون أنفسهم زعماء لمجدٍ حاضر أو مجدٍ قادم، والدين أداة للسيطرة أو تحقيق النفوذ على الأتباع. *فالمسألة ليست مسألة دين بقدر ما هي مسألة بناء مجد وسلطة.*

أما النبي ﷺ فورَّث منهجه لخليفتيه أبي بكر ثم عمر، وكان لكليهما مواقفُ واضحة، تبدَّت في حزم أبي بكر في حروب الردَّة؛ لأنه أمر له علاقة بالدين، وفي لينِ عمر تجاه الأمم التي فُتحت أراضيها وأقرَّهم على دينهم، وكانت القدس مثالًا ساطعًا على ذلك.

كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في الردَّة موقفًا حاسمًا، لا يختلف عن النهج النبويِّ في تبليغ أنه «يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون»، ولا يختلف عن إخبار الله تعالى للنبي ﷺ أن «ودّوا لو تُدهِنُ فيدهنون»، ولا يختلف عن حديث النبي ﷺ مع ثقيف.

فقد فهِمَ أبو بكر رضي الله عنه الرسالة، وقال: «واللهِ لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»، فلم يكن هناك هوان في الموضوع، باعتبار أن الدين لا مساومة فيه والرسالة هي حجر الأساس للنبوة ومحور ارتكاز كل تصرفٍ استراتيجيٍّ قام به النبي ﷺ.

مفهوم جنيني في «فلسفة التعاطي» مع مكونات الرسالة

من المهمّ جدًّا أن نتأمَّل كيف أن حكمة الله عز وجل قد تجلَّت في جعل الرحمة لا العدل ـ من حيثُ المبدأ ـ التكليفَ الأول والأهمَّ للنبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإذا كان التكليف رسالة خاتمة للبشرية بمعنى أنها أولًا ستستمر إلى قيام الساعة، وثانيًا للناس كافَّة، وثالثًا للعالمين، فما هي الكلمة الجامعة التي تستطيع أن تلخِّص أساس فلسفة ومنهج التعاطي مع كل هذه المكونات؟

إنك لن تجد مفهومًا أفضلَ وأوسعَ من الرحمة؛ لأن العدل متحققٌ إن تحقَّقت الرحمة، ولو كانت الرحمة هي أساس الفعل الذي تنفعل فيه لتحقَّقت من بعد ذلك قيم كثيرة؛ لأن أساس القيم هو الرحمة، وعنه تتفصل بقية المبادئ الأخرى، وهي أساس تفاعل الإنسان مع محيطه ورابطه الأوثق بذويه.

فلو بنينا على هذا المفهوم الجنيني الأصلي الأول منهجًا في تعامل النبي مع كل ما هو قادم، لاستطعنا أن نعيد الأمور إلى نصابها الأساسي، ومن هنا تنطلق علاقة الأشياء والبشر بالرسالة.

ولذلك فالرحمة هي التي تصنع استقرارًا وتوازنًا بيئيًا، وتصنعُ عدلًا اقتصاديًا، وتصنعُ احترامًا لحقوق الإنسان والحيوان؛ لأنها المرتكز الذي ينظِّم الحياة ويحقِّق التوازن فيها.

ولذلك قال النبي ﷺ إن هناك من دخل الجنة بسبب رحمته بكلبٍ سقاه ماءً بعدما روى عطشه الشديد، وامرأة حبست هرَّة فمنعتها الطعام والشراب فدخلت النار ولم يكن بقلبها رحمة، فمنظومة الرحمة لا تشمل تعاملات البشر المادية والسياسية والاقتصادية فقط، بل هي ميزانٌ عامٌّ للوجود لكي يصل إلى لحظة اتصالٍ مع بعضه البعض في توازنٍ قيميٍّ كامل.

فغياب الرحمة يصنع اختلال التوازن الذي نعاني منه الآن، ولو كان في قلوب من يمسكون بزمام الأمور رحمةٌ لَما وصلنا إلى هذا الحال الذي نحن فيه، ولو كان في قلوب البشر رحمةٌ لَما وصلنا إلى درجة أن ١٪ من البشرية يملكون ما يملكه ٩٩٪.

وانظر معي - على سبيل المثال - كيف أن أزمة كورونا قد ضاعفت - في أسابيع قليلة وفي عز أزمة طاحنة بالعباد - من ثروة حفنة قليلة جدًّا من الأغنياء، بينما فقد ٣٤ مليون شخص وظائفهم، فأين الرحمة في ذلك؟

إن المسألة ليست مسألة عدل، فثراؤهم قانوني، لكنه ليس أخلاقيًا. فهؤلاء يحقُّ لهم أن يكسبوا النقود؛ لأنهم لم يسرقوها، فالناس ذهبوا إلى الشراء من أمازون لجلوسهم بالمنازل، فأمازون كسبت في الدقيقة الواحدة كذا مليون، ولا مشكلة في ذلك قانونيًا،

ولكن الرحمة خلَت من قلوب العباد؛ لأن النظام الذي يحكم العالم الآن استبدل الرحمة التي ينبغي أن يتواصل الناس فيها مع أنفسهم ومع الوجود، بمنظوماتٍ مصلحية نفعية مادية تحقِّق مكاسبَ للأقوياء.

فالنبي ﷺ في تصرفاته بالإمامة وفي تصرفاته بالفعل الاستراتيجي كان رحيمًا بالعباد؛ فتخيَّل أنك جالس في الطائف، وقد تمت إهانتك، وطُردت، وضُربت، ونزفت منك الدماء، وأنت لا تدري ما تفعل بعدها؛ لأنك خارجٌ من مكة إلى الطائف ولا خيار ثالثًا لك.

فتجلس عند هذا الجبل في حالةٍ يُرثى لها ويأتيك جبريل ـ كما ورد في الحديث المتفق عليه في صحيحي البخاري ومسلم ـ يقول لك: معي مَلَكُ الجبال وأمره الله ﷻ أن يسألك ويأتمر بأمرك، فقال مَلَكُ الجبال: يا محمد، إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين (الجبلين) ودمرتهم، فما تقول؟

فقال الرسول ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبُدُ الله وحده، لا يشرك به شيئًا»، فكان دُعاؤه أن: «اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

فأنت في مثل هذه اللحظات من الغضب تبحث على الأقل عن التنفيس عن نفسك، ولكن النبي ﷺ تشرَّب هذا المفهوم، مفهوم أنه نبيٌّ للعالمين وأنه رحمةٌ لهم، وهذه الرحمة داخلة في تكوينه النفسي، حيث استقرَّت وثبتت، وأصبحت شيئًا من التكوين الأصلي الطبيعي للنبي ﷺ.

ولذلك في الطائف عندما حاصرهم حصارًا شديدًا، والطائف هي التي أخرجته ولم يستطع أن يفتحها وقُتل من أصحابه أربعة عشر

بالسهام، جاءه الناس وقالوا له: ألا تدعو عليهم؟ فقال: اللهمَّ اهدِ ثقيفًا وأتِ بهم مسلمين.

«رحمةٌ تغلبُ الغضب».. أعظمُ ميثاقٍ إنسانيٍّ

في غزوة أُحُد عندما مُثِّلَ بأجساد المسلمين بما فيهم أقربُ رجلٍ للنبي ﷺ وأحبُّ الناس إليه حمزة بن عبد المطلب، تأثَّر النبي كغيره من الناس تأثرًا شديدًا، لكنه نهى أن يُمثَّلَ بأحَدٍ، ونهى أبدًا أن يُعامل البشر بالمثل، باعتبار أنهم ارتكبوا حماقةً تخرج عن طبيعة الرحمة التي جاء بها.

فلو كان في هذا الموقفِ قائدٌ مثل جنكيز خان لفعلَ الأفاعيل، وكان هذا الأخير يقذف الجثث الموبوءة ويلقيها فوق الجدران على الناس في المدن المُحاصَرة، فينتشر الطاعون بينهم. وكان إذا دخل هولاكو مدينةً أبادها إبادةً تامةً، وقُتلَ في زمنه مائة مليون إنسان عندما كان عدد سكان الكرة الأرضية وقتها لا يزيد عن ٤٥٠ مليونًا. فأنت تتكلَّم عن ربع سكان الأرض وقد قُتلوا جميعًا على يد رجلٍ واحدٍ بنى إمبراطوريةً واحدةً.

لكن كم الذين قُتلوا في زمن النبي ﷺ؟!

إذا استثنينا من قُتل في بني قريظة، وهو ما تعرضت له في كتابي «الربيع الأول»، فإن جميع من قُتل من المسلمين وغيرهم في كل الغزوات والسرايا لم يزد على ٦٠٠ شخص.

ولذلك فرحمة النبي ﷺ كانت تغلبُ غضبه، وكان يعلم أنه ينقادُ برسالة تكليفٍ سماوية من الله ﷻ، أصلها الرحمة وليس الانتصار أو المجد البشري أو رسالة قائمة على العنف.

ولذلك ختم المشهد البديع لفتح مكة بخطبته العظيمة التي يجب أن تُدرَس بوصفها ميثاقًا إنسانيًا في حقوق الإنسان، عندما قال: الناسُ من آدم وآدمُ من تراب، والناس سواسية كأسنان المشط. وقد كانت قيمة عظيمة في المساواة، لم يسبقه إليها أحدٌ من زعماء التاريخ الذين ذكرناهم، ولم يقل أحدٌ منهم لقومٍ حاصروه وحاربوه وأخرجوه من داره: اذهبوا فأنتم الطلقاء!



عندما يكون التفاؤل منهجَ عمل

نسمع دائمًا أن المنهج الإسلامي في الحياة منهج متفائل؛ ولذلك فالناس دائمًا يتكلّمون عن ضرورة تفاؤل الإنسان وعدم تشاؤمه، وأيضًا وجوب أن يكون الإنسان المسلم مقتديًا بالرسول ﷺ الذي كان يحبُّ الفأل ويكره الطيرة (التشاؤم).

نحاول في هذا الفصلِ أن نجيب على إشكالية «كيف تحوَّل موضوع التفاؤل من روحٍ إنسانية لدى النبي ﷺ إلى فعلٍ عمليٍّ على الأرض؟».

لأن المشكلة الكبرى تكْمُن في تطبيق الشعارات والمفاهيم. فبالإمكان أن نستدلَّ على المفاهيم ونصفها وصفًا دقيقًا، لكن عندما يتعلَّق الأمر بكيفية تطبيقها على الأرض، في الفعل اليومي والواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحياتي، فهنا تكْمُن الصعوبة؛ ذلك أن الواقع في أذهاننا عالمٌ آخر منفصلٌ عن المفهوم، برزخان لا يبغيان، بحيث إن الأول تسوده الواقعية الباردة، أما الثاني فيموج بالمشاعر والمثاليات الحميمة.

ولهذا حاولنا أن ندرس كيف استطاع النبي ﷺ أن يحوّل مفهوم التفاؤل إلى تطبيقٍ عمليٍّ فعليٍّ على الأرض، وذلك في غضون الفترة

التي قضاها في مكة (ثلاثة عشر عامًا) ثم في المدينة (عشرة أعوام)، طوال ثلاث وعشرين سنةً. . فكيف صاحب التفاؤل منهج النبي عمليًا على الأرض؟

«التفاؤل الوجودي» رغم الهزائم والمصائب

أودُّ في البداية أن أُعرِّف التفاؤل؛ فالتفاؤل الذي نقصده هنا هو التفاؤل الوجودي العميق طويل الأَمَد، التفاؤل الذي ينبع من مسألة جوهرية في صميم الدين، وهي أن هذا الدين الذي أُنزل على محمَّد ﷺ هو الحقُّ، ولأنه الحقُّ سوف ينتصر وسوف يتبدى أثره في حياة البشرية اطرادًا إلى قيام الساعة؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. إذن، فالحقُّ هو المقصد الذي تقصده البشرية بشكلٍ مطردٍ عمومًا إلى قيام الساعة.

لكن هذا لا يعني أننا في هذا المسار الوجودي الطويل لن نرى غلبة الباطل أحيانًا، بل سنقع في إخفاقاتٍ وابتلاءاتٍ ومصائب وهزائم، وإنما التفاؤل هو ذلك المنطق الذي يحكم صميم التجربة الدينية باعتبار أن الإنسان المؤمن بالله ﷻ وبالرسول ﷺ إنما هو مؤمنٌ بإطارٍ زمنيٍّ متعدٍّ للوجود الإنساني الفردي.

وهذه قضية جوهرية ينبغي استيعابها، حتى لا يتحوَّل التفاؤل إلى نزوةٍ عابرةٍ لا تتجاوز بعض الكتيبات الخاصَّة بالتنمية النفسية، والشعارات المُنمَّقة التي يتمُّ تبادلها في الهواتف والرسائل.

إن التفاؤل إذن هو ذلك المسار الإنساني الدؤوب نحو مستقبلٍ يحكمه الخير؛ لأن الخير يسكن في المستقبل، باعتبار أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبةُ للمتقين، وباعتبار أن الحقَّ هو المقصد النهائيُّ الذي ستؤول إليه الأمور في يومٍ من الأيام.

إن التفاؤل الوجودي هو تفاؤلٌ مُتَعدٍّ للزمن الشخصي، أي إنه تفاؤلٌ يتجاوز عُمر الفرد الواحد ولا تشهد فيه النهايات بالضرورة. بل يكفي أن يكون السعي الدؤوب نحو الحقّ هو في ذاته خير، وإن لم تشهد كل نتائجه، فهو إذن تفاؤلٌ ممتدٌّ، وعلامته أن تنطبع نفسية الإنسان بروح التفاؤل على اعتبار أن هذا الكون بكلِّ ما فيه من سُنن وقوانين وتيارات إنما هو في نهاية المطاف خلقٌ من خلقِ الله وسُنَّة من سُننه.

وكل ما فيه بتقديرٍ من الله ولطفه، والله لطيفٌ وهو رحيم بعباده. وعلى هذا المنوال، فالشرُّ المطلق ليس موجودًا في حياة البشرية، والخير هو المسار الذي تسير باتجاهه الإنسانية في سائر الأزمنة حتى العسيرة منها، وهو ما ينعكس ابتداءً على عدم وجود اليأس والقنوط؛ لأن نقيض التفاؤل هنا هو اليأس والقنوط: ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولأن الذي لا يؤمن بأن هذا الكون بكليته الوجودية وقوانينه وسُننه التنظيمية إنما هو خلقٌ من خلقِ الله اللطيف الرحيم الذي تؤول إليه مقاليد الأمور وهو بكل شيء محيط، فمن لا يؤمن بهذه المرجعية المتعالية بكل ما فيها من خيرٍ هو في الحقيقة متشائم قنوط؛ لأنه سيجد نفسه تغالب عوادي زمنه الفردي من دون أملٍ أو غايةٍ في حياة متعدية، حياة أخرى قادمة.

«العاصم من اليأس».. هل نحصد ما زرعنا من بذور؟

إن الإيمان يعصم الإنسان من اليأس إذا اقترن هذا الإيمان بيقينٍ وجوديٍّ بأن الخير الذي يسكن المستقبل وبأن تمام الأمر باتجاه الحق يتمُّ في زمنٍ ليس بالضرورة زمني وزمنك، وكذلك نُعيدُ تعريف أعمارنا ونعيد تعريف أزمتنا.

وقد زرع كثيرٌ من الأنبياء بذور دعوتهم، لكنهم لم يحصدوا كلّ النتائج في زمنهم، فالرسول ﷺ كان يبشر المؤمنين بفتح بلاد كسرى وبلاد قيصر، لكنه لم يرها بنفسِه، حيث فُتحت بعد وفاته ﷺ.

ولهذا فالزمن المتعدي الوجودي هو الزمن الذي ينبغي لكل واحدٍ منَّا أن يؤمن به؛ لأننا أنا وأنت في النهاية ضمن سياقٍ أوسع بكثيرٍ من الحياة الفردية أو التجربة الشخصية، والأخيرة في حال انطبعت بقدرٍ عالٍ من التفاؤل، تصل إلى حالة استقرار نفسيٍّ وفعلٍ عمليٍّ؛ لأن الفعل الإنساني لا يتحوَّل إلى فعلٍ حضاريٍّ إلَّا بوجود ركيزتَيْن أساسيتَيْن:

- الأولى أنه مؤمنٌ بأن مسار العالم يتجه باتجاه هدفٍ سامٍ وغايةٍ عُليا.

- والثانية أن الزمن أيضًا هو زمنٌ متعدٍّ لحياة الفرد الشخصية إلى أزمنةٍ أُخرى أبعدَ من ذلك، فهو زمن الرسالة وليس زمن الفرد.

ومن ثَمَّ يستطيع الإنسان ـ حسب هاتين الركيزتَيْن ـ أن يقطف ثمارَ الطمأنينة والدافعية للعمل، وثمارًا مستقبليةً تتجلَّى في الزمن المتعدي الذي ينتمي إليه الإنسان انتماءً حضاريًّا ورساليًّا.

«الانحياز للمستقبل».. لعل الله يُخرج من أصلابهم

عندما خوطب الرسول ﷺ بأنه رسولٌ للبشرية وللناس كافَّةً وأنه رحمةٌ للعالمين، لم تكن هذه مسألة سهلة بالنسبة إليه ﷺ، وهو الذي كان يعيش في تلك البلدة الصغيرة في الحجاز منقطعًا عن العالم إلَّا ما يصل من أخبارٍ عبر القوافل. أضف إلى ذلك أن الرسالة لم تُبعَث في بلاد كسرى ولا بلاد قيصر، وإنما بُعِثَت في ذلك المكان القصيّ. ولأن الله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته، كانت جغرافية المكان

اختيارًا إلهيًا فيه حكمة كبيرة وأهداف عظيمة، قامت بالتحقُّق للنبي ﷺ.

لكن ومنذ اليوم الأول، أدرك النبي عليه الصلاة والسلام ثِقَلَ هذا الوحي الذي نزل عليه وهذه الرسالة التي يُطلع بها: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. ولكي يستطيع أن يحمل هذا القول الثقيل وهذه الرسالة العظيمة، احتاج إلى بناءٍ نفسيٍّ متينٍ، وهذا البناء النفسي تمحور حولَ رسالةٍ للمستقبل الممتد، ليست في الواقع فحسب؛ لأن الرسالة في تلك اللحظة كانت لتعاني معاناةً شديدةً عبر توالي الأيام، لكن النزعة النبوية باتجاه المستقبل شكَّلت تيارًا نفسيًا استراتيجيًا دائم الحضور، وقد تمت ترجمته عمليًا في كل أفعاله بشكلٍ واضحٍ.

وفي حديثٍ مشهورٍ أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له أن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول ﷺ: «يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدَّ من يوم أُحد؟ قال: نعم، فحدَّثها عن رحلته للطائف، وكيف أنه نزل عند عمرو بن عبد ياليل، وكان عمرو زعيم ثقيف في ذلك الوقت، وعرض عليهم الإسلام، فلم يسلموا بل أفحشوا له في القول، ووقع عليه من الأذى ما وقع. قال: «فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلَّا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

لقد عكست رحلة الطائف هذه ـ كما أشرنا سابقًا ـ وضعيةً

نفسيةً خبأت حزنًا عميقًا؛ لأن عمَّه أبا طالب قد توفي فانكشف غطاؤه الاستراتيجي الذي كان يحميه، وتوفيت خديجة رضي الله عنها في ذلك العام فانكشف غطاؤه النفسي الذي كان يسكن إليه، ثم تمت معاملته في الطائف بأقصى أنواع الفظاظة. لقد قضى ﷺ عشرة أيام في الطائف وحاول إقناعهم بالإسلام أو النُّصرة، ولكنهم أساءوا الأدب معه وأغروا به سفهاءهم فآذوه جسديًا، وخرج النبي ﷺ في تلك الحالة النفسية ـ وكان معه زيد بن حارثة ـ ووجد فرصةً سانحةً للانتقام من قريش الكافرة التي بسببها حدث كل هذا، فبماذا ردَّ النبي ﷺ على ملك الجبال؟ قال: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»، أي إنه رفضَ أن يُعذَّبوا بالهدم والتدمير، بل دعا أن يُخرج الله من ذريتهم من يؤمن به.

إن هذه النفسية غير العادية تنبع من نبيِّ الرحمة، المبعوث رحمةً للعالمين، والذي لا يمكن أن يدعو على قومه بالهلاك، بل يدعو لهم بالهداية. ولذلك كان أكثر دعائه: «ربِّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». فهل كانت هذه مجرَّد عبارة جميلة وحُسن خُلق فقط، أم أنها كانت برنامج عمل؟

«اختراق بيوتِ السادة».. كيف انحاز الرسول للمستقبل؟

عندما يقول: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»، فإن الانحياز نحو المستقبل يكون تلقائيًا. فالحديث هنا عن صناديد قريش، أولئك الذين قضى النبي ﷺ عشر سنين يحاول أن يدعوهم للإسلام فصدّوه صدًّا عنيفًا، لا لقناعةٍ مسبقة بأنه ليس نبيًا أو أنه جاء بقول إفكٍ منكر، وإنما يعلمون أنه صادقٌ وأمين، ولكنه الكِبْرُ الذي عشعش في قلوبهم ورغبتهم في

اتباع مصالحهم، فلهم مصالح اقتصادية واجتماعية وسؤدد ومقام وتراتبية قَبَليَّة لا يستطيعون التخلُّص منها أو التضحية بها؛ ولذلك كانوا مستعدين لمحاربته إلى الآخر. والآن وبعد عشر سنوات، وبعد وصوله إلى هذه القناعة، فما هي خطوته الاستراتيجية القادمة؟

إن مقصد قوله: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم» جعله ينحاز نحو الأبناء، فبالرغم من أنَّ كثيراً ممَّن يتحدَّثون عن النبي ﷺ في السنوات الأولى يقولون: «وقد اتبعه الضعفاء والفقراء والعبيد»، إلَّا أن الحقيقة هي أنه عندما تُدقق في أسماء الصحابة الأوائل تجد أنها غير ذلك.

حيث إنني حين نظرت إلى قائمة المهاجرين إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة في العام الرابع للبعثة (أي في وقت مبكِّر)، وجدتُ أن الثمانين الذين هاجروا في الهجرة الثانية إلى الحبشة في معظمهم لم يكونوا من الضعفاء، صحيح أن عبد الله بن مسعود وكذلك بركة حاضنة النبي وآخرين كانوا منهم، لكن غالبيتهم العُظمى كانوا من أبناء بطون قريش الكُبرى، بل من أبناء صناديد قريش وأقاربهم.

وبعدها عندما نظرتُ إلى السنة الرابعة، وجدتُ أنه قد أسلم على يد النبي ﷺ ثلاثمائة تقريبًا من سكَّان مكة، وكانت أسماء هؤلاء أسماء مُلفِتة للنظر.

ولنأخذ مثالًا على ذلك، فإذا سألت: من هو أسوأ شخص حارب النبي ﷺ في مكة؟

فإن الإجابة أنه أبو جهل عمرو بن هشام من بني المغيرة. وكان هؤلاء - بنو المغيرة - من أشد أعداء النبي ﷺ لأسباب كثيرة، أهمها أنهم يتزعمون حلف الأحلاف الذي يضمُّ بني جُمَح وبني سهم وبني

عدي، بينما كان بنو عبد مناف وبنو تيم (جماعة أبي بكر الصديق) وبنو زهرة أخوال النبي وآخرون ينتمون إلى حلف المُطيّبين، وكان بين هذين الحلفَيْن صراع قديم في مكة، فلمَّا جاء النبي ﷺ من حلف المطيبين، وقف حلف الأحلاف ضده بزعامة بني المغيرة، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة وابن أخيه عمرو بن هشام (أبو جهل).

حسنًا من أسلم من جماعة أبي جهل؟

من أوائل من أسلم من آل بيته شقيقُه من أُمِّه وأبيه سلمةُ بن هشام وهاجر إلى الحبشة، وأسلم ابنُ أخيه هشام بن أبي حذيفة وهاجر للحبشة، وأسلمت ابنة عمِّه أُمُّ سلمة، وأسلم أخوه لأُمِّه عياش بن أبي ربيعة، وكذلك أسلم ابن أخته عمر بن الخطاب، فأُمه رضي الله عنها اسمها حنتمة، وهي أيضًا أخت لأبي جهل، وأسلم كذلك ابنُ أختٍ أخرى له وهو هشام بن العاص. فكانت الحصيلة ستة من جماعته ومن آل بيته، سواء من إخوانه أو أبناء عمومته أو أبناء أخواته. والحديث هنا عن زعيم الحرب ضد النبي ﷺ.

فهل يوجد غيره؟

ولنأخذ مثالًا آخر، أَلَا وهو سُهيل بن عَمرو، الذي كان من قادة قريش الكبار الذين فاوضوا النبي ﷺ في الحديبية وله قصص طويلة. فقد أسلم ثلاثة من آل بيته، اثنان من أولاده وهما: عبد الله وأبو جندل، أسلما وهاجرا إلى الحبشة (وتعرفون قصة أبي جندل الذي هاجر في الهجرة الأولى ثم رجع فأمسك به والده ووضعه في السجن سنوات، وفرَّ إلى الحديبية في القصة المشهورة)، ثم والأهم من إسلام الأبناء إسلام البنات، فبإمكان الأبناء في مجتمعٍ قبليٍّ أن يخالفوا الآباء، فيقال: شاب طائش خالف والده، ولكنْ أن تفعل البنات ذلك، فلذلك بُعْد آخر.

فقد أسلمت ابنة سهيل بن عمرو، وهي سهلة بنت سهيل بن عمرو، واتبعت النبي في العام الرابع أو الخامس، أي في فترة زمنية مبكِّرة جدًّا، خصوصًا إذا افترضنا أن السنوات الثلاث الأولى كانت للدعوة السريَّة. وكذلك أسلمت ابنة أبي سفيان أُم حبيبة.

وأسلم ابن عم أُمية بن خلف، وكان أمية هو الزعيم الثاني المعادي للنبي في داخل مكة، بالإضافة إلى عتبة بن ربيعة، زعيم بني شمس، الذي يُعَدُّ زعيمًا مهمًّا جدًّا ومن الشخصيات الرئيسة، وتعرفون أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة كانا من قيادات دار الندوة الكبار، وأسلم ابنه أبو حذيفة أيضًا في وقتٍ مبكِّر وهاجر إلى الحبشة وكان موجودًا في معركة بدر، وقصة خلافه مع أبي جهل في موضوع أبي حذيفة قصة مشهورة قبيل معركة بدر.

ولكن المفاجأة الكبرى أن أسوأ من في قريش فظاظةً كان رجلًا اسمه النضر بن الحارث، وكان يُسمَّى بشيطان قريش، وهو رجل صفيق وكان عدوًّا للنبي ﷺ، وقتله النبي ﷺ بعد ذلك في معركة بدر، هذا النضر بن الحارث أسلم ابنه فراس وكان من المهاجرين.

وعلى هذا الأساس، فقد اخترق النبي ﷺ معظم بيوت السادة، ومن ثَمَّ فعندما أراد أن ينحاز إلى المستقبل فقد انحاز إليه بالفعل.

لماذا قد يتخلَّى جيلٌ عن «حالة الرفاه»؟

في كثيرٍ من الأحيان وحتى في منطقنا وزماننا نحن، عندما تكون لديك رؤية أو تكون صاحب قضية أو فكر ورأيت أن الآباء في القبيلة أو العشيرة أو المجتمع تافهون متعصبون لقيم باليةٍ، ستفترض أتوماتيكيًّا ألَّا فائدة في الأولاد، ولذلك توفِّر وقتك وتذهب إلى البحث عن آخرين، ولكن في حال النبي ﷺ فالذين أسلموا معه في

وقتٍ مبكِّر من الدعوة كانوا من كل أطياف مكة، من عبيدهم وسادتهم، ومن جميع البطون، ومن جميع الفئات العمرية.

فهل كان هذا مجرَّد صدفة؟

أبدًا، فالنبي ﷺ كان معه فريق رائع من الصحابة الأوائل أصحاب الخبرة والتجربة والعلاقات الواسعة والإخلاص التام، وقد عمل هذا الفريق مع النبي ثلاث سنواتٍ بجدٍّ واجتهادٍ، وكان فريقًا منوَّعًا وفي غاية الكفاءة، فيه أبو بكر رضي الله عنه من بني تيم، وهو نسَّابة قريش، وفيه كذلك عثمان بن عفان من بني عبد شمس، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص من شباب قريش المميزين، والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب، ولا ننسى السيدة خديجة ذات العقل الراجح والرأي السديد، وكانت هذه الشخصيات تفكِّر وتخطِّط وتعمل، فقد كان للنبي ﷺ مقرٌّ سرّيٌّ في دار الأرقم بن أبي الأرقم (من بني مخزوم)، فلم يكن اجتماعهم للصلاة وقراءة القرآن فحسب، بل كان هذا المقر مقرًا للتخطيط والعمل الدؤوب.

إن هذا المشهد الذي تراه أمامك الآنَ في العام الرابع لا يمكن أن يتمَّ فقط بمجرَّد الصدفة أو من دون تخطيط، فقد تمَّ بتدبيرٍ وتخطيطٍ ومحاولاتٍ دؤوبة، فقد استهدف النبي ﷺ أبناء القادة، وأسلم هؤلاء، ودخل الإسلام في عمق قريش، في بيوت السادة، لا في بيوت الفقراء فقط، وأسلم كذلك آخرون مثل بلال بن رباح وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وأُمه أسماء وهكذا، فالإسلام لا يميز بين فقيرٍ وغنيٍّ، ولا كبير أو صغير، ولا حُر وعبد.



ومن ثَمَّ فعندما فُتحت دار الأرقم بن أبي الأرقم كان من بين من يأتيها أبناء كبار قريش وسادتها، ومعهم كذلك إخوانهم في الدين من المُحرَّرين والموالي والعبيد، وهو ما يقتضي في الحقيقة مبادرةً وروحًا ونزوعًا نحو المستقبل، ويقينًا بأنك تحمل منهجًا يفتقده أبناء السادةِ في بيوتهم؛ ولذلك فالذي يريد أن يفسر لماذا يسلم مثلًا ابنا سهيل بن عَمرو وابنتُه رغم ما يملكونه من جاه ومال، ورغم أن إسلامهم سيؤدي إلى تعذيبهم وسجنهم، وقد سُجن أبو جندل بالفعل

لسنواتٍ حتى وقت الحديبية، وسُجن مصعب بن عمير كذلك، وسُجن آخرون من الشباب الذين كانوا من المرفهين اللّينين، والذين يعيشون حياة ممتازة بمعايير ذلك الوقت.

فما الذي يجعل جيلًا كهذا يترك حالة الرفاه المتوفرة في بيوت آبائهم من سادة قريش ويميلون إلى الرسول ﷺ؟

لأن النبي كان منحازًا للمستقبل، لقد فتح لهم آفاقًا جديدة، فقد خاطبهم بوعيٍ سامٍ لا يستطيع الآباء فهمه: فقد حدَّثهم عن التوحيد وعن دين إبراهيم عليه السلام، بينما كان الآباء يعبدون الحجارة والشجر وأشياء غريبة جدًّا، وحدَّثهم عن العدل والمساواة والأخوة، بينما الآباء يعيشون في عالم التفاخر بالأحساب والأنساب، وحدَّثهم عن وعدٍ بأن تتجاوز حياتهم حالة الانغلاق الموجودة في مكة إلى العالمية، فيستوي العالم أمام ناظريهم ساحة للانطلاق والتحرُّر.

يجلس بجوار الكعبة فيأتي واحد منهم مثل خباب بن الأرت، وكان من الشخصيات المستضعفة لأنه لم يكن من العوائل الكُبرى، فيقول له: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ انظر للوضع الذي نحن فيه، لقد كان خباب يوضع على النار فلا يُطفئ الجمر إلّا شحمُ ظهره، يذوب فيطفئ الجمر، ويأتي للنبي ﷺ ليدعو الله أن يرفع عنهم العذاب، فماذا يرد عليه النبي؟ يقول له: «واللهِ ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون».

«لسانٌ جديد».. كيف لك أن تُحاوره؟

هذا هو التفاؤل، حيث تستخدم كلماتك لنقلِ الناس من ضيق اللحظة وبؤسِها ومن ابتلائها إلى أُفقٍ رحيبٍ، فهذا أمر مفيد،

وتحوّلها إلى منهجٍ عملٍ تطبق فيه تفاؤلك اللفظي. فينطلق الناس في مشروعٍ متعاظمٍ ويضحون ويصبرون على العناء الذي يكابدونه، وهذه القضيةَ في غايةَ الأهمية.

إذن، فالانحياز المستقبلي هو سمة رئيسة، وينبغي لنا أن ندرك كيف استطاع النبي ﷺ أن يتفاعل معها، كما أن النبي ﷺ كان يحدِّد لهذا الجيل الذي من حوله ـ وأغلبه من الشباب ـ أهدافًا للمستقبل عالميةً وساميةً وبعيدة الأمد.

فالرواية التي يقولها النبي ﷺ انحياز نحو منهجٍ يمكن أن يصبح منهجًا يصف ضيق اللحظة المكيَّة في زمن جاهليِّة قريش في أفقٍ ممتدٍّ بعيدٍ عالميٍّ، حيث يقول لهم: إني رسول للعالمين، وفي الوقت نفسِه لديَّ هذه المبادئ التي لا يستطيع أحدٌ أن يحاجج بها، وحجاج آبائهم هو لجاج وعناد ليس فيه معنًى ولا قيمة.

لو كنتَ أنت شاهدًا على مثل هذه الحالة، وكانت طبيعتك تأبى الضَّيم، ولديك قدرٌ أكبر من الوعي والأخلاق، فستقول للجماعة: إن حديثكم فارغ؛ لأن هذه الحجَّة لا تقوم، ومحمد لم يأتِ ليقول أنا زعيم ابن عبد مناف وزعيم بني هاشم.

بل ممَّن عادى النبي ﷺ هو عمُّه أبو لهب، وعندما احتمى بآل بيته من بني هاشم لم يكن يقدمهم على إخوانه في الدين، فقد كان أبو طالب هو حامي النبي ﷺ، ولكنه لم يعطهِ أبدًا منزلةً أرقى من منزلة المسلمين، وعندما سُئل: أين أبو طالب؟ قال: هو في النار، وهذا يعني أن محمدًا عندما تحدَّث لم يتحدَّث بلسان القبيلة ولسانِ التفاخر بالنَّسَب، ذي المنطق المتدني القرشي، وإنما تحدَّث بلسانِ قيم ساميةٍ لا تستطيع قريش إطلاقًا أن تعاديها بمنطقٍ سويٍّ؛ ولهذا انحاز الشباب بأعدادٍ كبيرةٍ للرسول ﷺ.

التوظيف والابتعاد عن «إصدار الأحكام المطلقة»

أما بالنسبة إلى المبدأ الثالث في موضوع التطبيق العملي للتفاؤل، فهو النظر في الشقوق وتوظيف الخلافات، وهذه مسألة في غاية الأهمية، نابعة من مبدأ «إن مع العُسْر يُسْرًا».

فالنبي ﷺ لم يكن يصدر الأحكام المطلقة على الناس كأن يقول بأن هذه الجماعة قد انتهينا منها، بل كان النبي يتابع تفاصيل المشهد والتوازنات في داخل قريش القَبَليَّة ويتعامل معها بوعيٍ كبيرٍ.

وكان ذلك من السمات المميزة للنبي ﷺ في المدينة، وكان لديه جهاز لجمع المعلومات وتحليلها، وكان أبو بكر رضي الله عنه بمثابة مستشار الأمن القومي، باعتباره خبيرًا في كل ما يتعلّق بشؤون القبائل وأعدادها وأهميتها وأنسابها، هذا بالإضافة إلى الأخبار التي تأتي بها العيونُ من كل قبائل العرب.

وكان النبي ﷺ يستشير أصحابه في رسم استراتيجياته العملية؛ ولهذا كانت لديه خبرة عميقة في التعامل مع الأشخاص والخصوم، فالنبي كان يعرف هذا معرفةً عميقةً سخَّرها في عدة أماكن، من بينها ـ على سبيل المثال ـ رحلته إلى الطائف، فبعد أن لقي من أهلها ما لقي، أراد أن يعود إلى مكة. إلّا أن عودته كانت ستكون من دون غطاءٍ أمنيٍّ بعد وفاة أبي طالب، بالإضافة إلى أنه قد ذهب مستجيرًا بغيرهم عليهم، فنزع غطاء القبيلة عنه، وكان يمكن أن يعتدي عليه أيُّ شخص؛ لأنه حين خرج إلى الطائف خرق أحد المبادئ الضمنيَّة في العُرف القَبَلي، وهو نزع ثوب الولاء للقبيلة واللجوء إلى قبيلة أخرى.

وتمثّل الترتيب الأمني الأمثل في أن يجد له غطاء بما سُمي في ذلك الوقت بالجوار؛ لأن العرب كانت إذا أجارت شخصًا فالكل

يحترم ذلك الجوار، وكانت هذه منظومة أمنيَّة مهمَّة جدًا في الجزيرة، بحيث إن الجوار يمكنك من أن ترتحل أو تنتقل إلى مكانٍ آخر من دون أن يعتدي عليك أحدٌ. والسؤال هو من الرجل الذي وقع عليه اختيار النبي ﷺ في الجوار؟

وهذه النقطة مهمَّة جدًّا؛ لأُبيِّن لك مدى معرفة النبي بتفاصيل الوضع ودقائقه في داخل مكة، فهذا الرجل المرشَّح لكي يمنح جوارًا للنبي هو المُطعِم بن عدي بن نوفل، ونوفل هذا هو ابن عبد مناف أخو هاشم، وكان المطعم يلتقي مع النبي ﷺ في الجدِّ الثالث.

فلماذا المُطعم بالذات؟

يقول رواة السِّير من دون أن يفصلوا إن النبي ﷺ أرسلَ رجلًا من خُزاعة إلى المطعم بن عدي يقول له إن محمدًا يريد أن يدخل هو وزيد في جوارك في مكة، فهل تقبل؟ ففكَّر المطعم قليلًا ووافق بالفعل، وجمع أبناءه وحملوا السيوف وأدخلوا النبي عليه الصلاة والسلام وقصدوا الكعبة، وأخبروا الجميع أن محمدًا في حمايتهم ويُمنع أن يعتدي عليه أحد.

إذن، لماذا اختار المطعم؟ ولماذا قَبِل المطعم؟

إذا نظرت قليلًا ستجد القصة في غاية المتعة، فنوفل جدُّ المطعم كان على خلافٍ مشهورٍ مع عبد المطلب جدِّ النبي، وعندما كان عبد المطلب ضعيفًا ولم يكن لديه أبناء اعتدى نوفل على ابن أخيه وسلَبَه مجموعة من المزارع والأراضي، فحاول عبد المطلب أن يستعيدها، فلم يقف معه أحدٌ من مكة لينصره ضد نوفل القوي، فأرسل عبد المطلب إلى أخواله من بني النجار ـ وهم من الخزرج ـ في يثرب، فجاء سبعون من أخواله من بني النجار من يثرب في موسم الحج، ومعهم سلاحهم، فعلقوا السلاح في الحرم وقالوا: يا

نوفل، إما أن تعيد الأراضي التي أخذتها من ابن اختنا وإلَّا قاتلناك، فخاف نوفل وأعاد الأراضي لعبد المطلب.

ما دخل خزاعة في الموضوع؟

كانت خزاعة تعادي قريشًا عمومًا لأسبابٍ تاريخيةٍ معروفة، وعندما رأت عبد المطلب قد وقف ضد قريش وقد نَصَره أخواله من بني النجار، جاءوا إليه ووقعوا معه حلفًا، فصار عبد المطلب حليف خزاعة.

ماذا فعل النبي ﷺ إذن؟

أرسل واحدًا من خزاعة حلفاء جدِّه عبد المطلب إلى حفيد نوفل، فلمَّا قال الخزاعي للمطعم إن محمدًا يطلب أن يدخل في جوارك، فهم المطعم مغزى اختيار الخزاعي رسولًا، وفهم مغزى الرسالة كذلك، فقد فهم أن لدى النبي خيار اللجوء لأخواله من بني النجار أو لحلفاء جدِّه من خزاعة، فآثر المطعم أن يقوم هو بالمهمَّة.

فقد سخَّر النبي إذن شقوق التاريخ لمصلحة الدعوة، ولو لم نكن نعرف قصة اختلاف نوفل مع عبد المطلب لظننا أن اختيار النبي للخزاعي كان عشوائيًّا.

فالنبي ﷺ كان يدرك تفاصيل المشهد، ويستفيد منها ويوظِّفها، وهذا أيضًا يؤشر إلى أن فكرة الهجرة إلى يثرب - التي تحقَّقت بالفعل بعد ثلاث سنواتٍ - كانت قديمةً في ذهن النبي.

أي إن النبي لم يخطر بباله فجأةً أن يهاجر إلى يثرب، فقد كان حاضرًا في وعيه أن أخواله (أو أخوال جدِّه) من الخزرج هم خيارٌ مقبولٌ لكي يمنحوه الحماية المطلوبة.

ولذلك أُعيد مسألة الهجرة إلى يثرب إلى تلك الأيام القاسية التي قضاها النبي ﷺ من بعد الطائف، فقد قضى أربعة أيامٍ في الطريق إلى مكة، ويُقال إنه أقام قريبًا منها حتى بعث هذا الخزَاعي وعاد له بضمان الأمن من المُطعم بن عدي.

إذن، فكّر معي: النبي ﷺ كان في غاية التوفيق في فهمه لتفاصيل الأمور وفي توظيفها، وتخطيطه مع أصحابه ﷺ كان أيضًا بإدراكٍ عميقٍ لموازين القوة ولتفاعلات التحالفات والائتلافات بين القبائل والعلاقات، وكان يوظف كلَّ ذلك لخدمة هذا المشروع الرسالي الذي أنزله الله ﷻ عليه، فالجهد البشري فيه كان كبيرًا ومتقنًا، وعملية التفاعل مع الواقع كانت متواصلة، ومن هنا نستطيع أن نقول إن النبي ﷺ كان أُسوة لنا؛ لأن هذا النبي تفاعل مع الواقع وتفاصيله الكثيرة وأخرج منها تناقضاتٍ وشقوقًا وظّفها في استراتيجيته؛ ولذلك استطاع أن ينتصر في نهاية المطاف.

المبادرة «حينما يُؤمن الإنسان بأنَّ المستقبل له!»

أما بالنسبة إلى النقطة الرابعة فهي المبادرة الدائمة، فعندما تكون متفائلًا بأن المستقبل لك تسعى إلى المبادرة، فالمنكفئ على الماضي لا يبادر، بل يحاول تعطيل المبادرات.

إنك عندما تضعف وتخسر ربما يخطر ببالك أن تستسلم أو تساوم، وكلنا يمرُّ بهذه المرحلة في وقتٍ ما، سواء في الوظيفة أو التجارة أو الحياة العامة أو حتى الصراع السياسي، وهو ما يسبِّب خذلانًا كبيرًا لقضايانا الشخصية ولبعض القضايا العامة التي نعيشها في العالم الإسلامي، فلماذا ينكسر الإنسان ويتخاذل؟

يكْمُن ذلك في ضعف رؤيته للمستقبل، ولغياب البُعْد الرسالي

في عمله، فهو لا يشعر بأن ما يقوم به هو لمصلحة متعدية لزمن وجوده وعُمره وحياته، ويفكِّر في كل شيءٍ بواقعية براغماتية آنية، لحياته ومصلحته، وعندما يفكِّر الإنسان في كل شيء لحياته ومصلحته وزمنه الذي يعيش فيه فقط يكون متشائمًا.

إن الفكرة المادية الوضعية فكرة متشائمة تمامًا؛ لأن الشخص في الأغلب لن يحقِّق كلَّ ما يريد في حياته، وطمع الإنسان ينمو مع الزمن؛ ولذلك تكون لديه مشكلة النَّهَم الدائم نحو المزيد، فعندها لا نحقِّق ما نطمع في تحقيقه؛ لأن موازين القوة ومعادلات التدافع تتداخل وتحدُّ من تحقيق كل ما يصبو إليه الإنسان، وكلما ازداد غناك أو ثروتك أو سلطتك تواجه تحدياتٍ كبرى وتقع في دوامة التشاؤم هذه.

لكن التفاؤل الوجودي المتعدي زمنيًّا هو في الحقيقة ما يخلصك من هذا الأمر؛ لأنك تبدأ بالتفكير لا لمصلحتك فقط. فالنبي ﷺ لم يكن يفكِّر في مصلحته ومصلحة زمانه فقط، بل كان كل فعلٍ يقوم به يسعى إلى بناء أُمة ستأتي من بعده، وكان فعله تشريعًا للأُمم القادمة حتى لا يقعوا في حرج؛ ولذلك لم يكن يفعل بعض الأشياء حتى لا يأخذها الآخرون مستقبلًا فتضر بهم أو تؤثر فيهم، وأحيانًا كان في بعض القضايا السياسية يسعى من أجل الفكرة نفسها، أي إنه يبني مشروعًا بعيد الأمد وليس مشروعًا سريع القطاف والإنجاز.

كانت المبادرة عند النبي عليه الصلاة والسلام ظاهرةً في كل مكان، فلم يكن يسمح أن يقع هو في رد الفعل، بل كان دائمًا هو المبادر، فيجد الخصم نفسه في دائرة رد الفعل. وهناك من يدَّعي أنه في معركة بدر، لو لم يبادر المشركون النبي بالهجوم لَما كان النبي

عليه الصلاة والسلام ليحاربهم. وهذا كلام غير دقيق، فالنبي عليه الصلاة والسلام سيَّر قبل معركة بدر سبع سرايا على الأقل لاعتراض قريش، بدءًا بسرية «سيف البحر» التي بدأت قبل سنة من معركة بدر، وانتهاءً بسرية «نخلة» التي قُتل فيها أحد كفار قريش في قافلة صغيرة كانت متجهةً إلى الطائف. وكان الهدف من هذه السرايا هو اعتراض قوافل قريش، التي ستخبو وتنهار من دون تجارة.

لذلك فقريش لما خرجت لحماية قافلتها التي كانت مع أبي سفيان، خرجت متثاقلةً، ولم يكونوا سعداء، فلم تكن قريش قبيلةً تحبُّ القتال، وإنما هم تُجار، والتجَّار يحبون دائمًا الاستمتاع بما لديهم والمحافظة على قدرٍ عالٍ من الأمن للتجارة. ولكن لمَّا رأوا أن تجارتهم قد بارت، وأن قوافلهم قد انقطعت، وأن سرايا النبي تجول الساحل وتقطع عليهم طريق تجارتهم، اضطُروا حينها إلى الخروج في هذه القافلة بالتحديد، قافلة أبي سفيان، وهي القافلة السنوية الكبرى التي كانت تحمل حوالي خمسين ألف دينار، وكل أهل مكة تقريبًا كان لهم فيها تجارة. فمبادرة النبي إلى اعتراض القافلة استدعى ردَّ فعل قريش، ولا أظن أن النبي لم يكن يتوقع ذلك، بل توقَّعه ورآه واستعدَّ له.

علِمَ النبي أن قريشًا تقوم على ركنين أساسيَّيْن: التجارة والبيت (الحرم) كما قال الله تعالى في سورة قريش؛ ولذلك اعترض هذه التجارة فجاءت غزوة بدر، فكانت ردَّ فعلٍ على المبادرة النبوية.

أضف إلى ذلك غزوة أُحد، فهل كان النبي ﷺ غير مُدرِكٍ أن قريش بعد أن قُتِلَ كبار سادتها وأُطيح بهم لم تكن لتأتي من أجل الثأر؟ فقد كان يعلم البُعْد القبلي، ويعلم أن قريشًا لم يُفك عنها الحصار الاقتصادي وستحاولُ مرةً أخرى. فأُحُد أيضًا كانت امتدادًا

لبدر؛ لأنها كانت نتيجة اختلال موازين قوة حدثت في بدر بالنسبة إلى قريش، ونتيجة للسرايا الكثيفة التي سيرها النبي بعد بدر لتعزيز النفوذ الأمني للمدينة ومواصلة حصار قريش، فلا بدَّ أن يردوا الاعتبار لأنفسهم بين قبائل العرب، ولا بدَّ أن يرفعوا الحصار لأنه كان لا يزال مستمرًا في الساحة، وهو ما شكَّل مشكلة كبيرة جدًا.

ثم بعد أُحُد اكتشفوا أن شيئًا لم يتغيَّر. فبالرغم من قتلهم لسبعين من أصحاب محمد ﷺ، فإنهم لم يستعيدوا حريتهم في السفر عبر الصحراء، وكان هناك طريقان مهمَّان جدًا لمكة هما: طريق «سيف البحر» الذي يذهب إلى الشام، وطريق «النجد والنجدية» الذي كان يمرُّ بالقرب من المدينة ويذهب إلى تبوك. والطريقان تمَّ قطعهما، فذهب المشركون إلى المدينة، وكانت معركة الخندق، وصبر النبي ﷺ وصمد وثبت هو وأصحابه في الخندق، ثم انهزم المشركون ولم يستطيعوا أن ينتصروا على النبي ﷺ، وكانت تلك اللحظة التي هُزمت فيها استراتيجية قريش تمامًا وفَقَدت فيها المبادرة.

خسرت قريش لأنها استندت إلى استراتيجية ردة الفعل، فالمبادرة كانت بيدِ النبي وليست بأيديهم، فلم يستفيدوا شيئًا. فبعد إفلاس استراتيجيتهم جاء النبي ﷺ بالمبادرة الرئيسة، وهي مبادرة مختلفة تمامًا في نوعها عن المبادرات ذات الطبيعة العسكرية السابقة، مبادرة مدهشة وذكية: الحديبية.

إنك إن أردت أن تفهم المبادرة النبوية الخاصة، فهي على وجه التحديد الحديبية. ففي الحديبية، لم تكن قريش في وضعٍ يسمح لها بردٍّ فعلٍ عنيف، وكان قرار الذهاب إلى الحديبية خطوةً وَضعَتهُم في الزاوية، وجعلتهم في ورطة حقيقية، وأجبرتهم على خيارين: إمَّا

السماح للنبي ومَن معه بالعمرة، وفي هذه الحالة كانت قريش ستشعُر بالمهانة لأن محمدًا الذي حاربها سيدخل مع جماعته للعمرة من دون إرادتهم، والخيار الثاني أن يتفقوا معه على هُدنة وهو ما حدث.

إذن، فالنبي ﷺ هو الذي بادر وخطَّط للهدنة، ولم يكن لدى قريش خيار، فالنبي يعرف أن قريشًا لم تكن تستطيع أن تمنع الحاج والمعتمر من دخول الحرم؛ لأن ذلك يخالف ما تعارفت عليه قبائل العرب.

ويعلم أنهم لو سمحوا له بالدخول فسوف يشعرون بالإهانة؛ ولذلك فقد أوقعهم في ورطة: سيُهانون من جهة لسماحهم لعدوِّهم بالدخول، وستحدث لهم مشكلة عويصة إن منعوه من جهة أخرى، فما كان من حقهم منع أحد. حيث مما عُرفَ في جزيرة العرب أن قريشًا لا تملك حقَّ منع رجلٍ أو امرأةٍ من الحج أو العمرة، فكانت قريش تعرف أن الميثاق الذي بينها وبين العرب في حمايتها للبيت الحرام وسدانة الكعبة أنها لا تمنعُ شخصًا من العمرة إن أرادها، فهي مسألة مُحرَّمة عند قبائل العرب، فإن انتشر خبر أن جماعة محمَّد مُنِعوا من العُمرة وهم ذاهبون إليها مرتدين ملابس الإحرام ويسوقون الهَديَ، فستحدث مشكلة استراتيجية بالنسبة إلى قريش بين قبائل العرب.

لقد أوقعهم النبي في ورطة، ثم أخرجهم منها بأن قدم لهم الحلَّ: أَلَا وهو الهدنة.

لذلك فكل ما يتعلَّق بتعامل النبي ﷺ في حياته مع قريش وقبائل العرب، وما يتعلَّق باستقباله للتائبين والوافدين إليه بعد أن آذوه، أمثال صفوان بن أُميَّة وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم، كل هذه التعاملات كانت تقوم على مبادرته إليهم، وهذا مبدأ رئيس في استراتيجيته.

المبادرة.. «الاستيعاب بدل الاستئصال»

أما بالنسبة إلى النقطة الخامسة في منهجية الرسول ﷺ في تحويل التفاؤل إلى منهج عمل، فهي أنه كان يحاول دائمًا استيعاب العدو بدلًا من استئصاله.

ولذلك نجد أن النبي استوعب المدينة المنورة من خلال صحيفة المدينة ومن خلال المؤاخاة، وبعدها قبائل الساحل التي تتكوَّن من خزاعة وجهينة وغفار وضمرة، وقد كانت جميعها على طريق قوافل قريش، في طريق البحر الأحمر، وقد وقَّع النبي ﷺ معهم اتفاقياتٍ في السنة الأولى من الهجرة، ثم بعد ذلك ناوش النبي وحارب غطفان، لكن في الأخير استوعبها ودخلت معه إلى مكة.

وبالنسبة إلى بني سُليم الذين قتلوا من الصحابة الكثير بعد أن غدروا بالمؤمنين في بئر معونة، فقد استوعبهم وأدخلهم معه مكة، وكانت كل قبائل العرب الأخرى التي تقارب السبعين قبيلةً جميعها قد انتهى بها المطاف بأن استوعبها النبي، علمًا أن بعضها قد فعل الأفاعيل واستمرَّ في فعلها (مثل عُيينة بن حصن زعيم غطَفان الذي لم يحسُن إسلامهُ حقيقةً حتى في أثناء حياة النبي ﷺ، وغيره من قيادات بعض القبائل).

ما أريد قوله هنا هو أن سياسة النبي عليه الصلاة والسلام قد ظلَّت غايةً في التوازن الاستراتيجي، وذلك حتى مع المنافقين الذين كانوا في المدينة المنورة. فقد كان يعلم أن هؤلاء المنافقين لديهم جمهورهم، فلم يشأ أن ينشئ فتنةً قَبَليةً داخل المدينة، ولم يرد أن يتسامع الناس بأن محمدًا يقتُلُ أصحابه، وقد كرَّر هذه العبارة على عمر رضي الله عنه عدة مراتٍ عندما طلب عمر قطع رأس عبد الله بن أُبي بن سلول زعيم المنافقين.

فهذه المسألة جوهرية، ولننظر ماذا فعل مع عبد الله بن أُبي.
فقد استمرَّ معه في خُلقٍ حسنٍ إلى أن مات في السنة التاسعة بعد تبوك، وكفَّنهُ ودَفَنهُ وصلَّى عليه إلى أن نزلت الآية التي منعته من أن يصلي أو يقوم على أحدٍ مات منهم، لكنه راعى طوال هذه الفترة ألَّا يدخل معهم في صدامٍ، وقد نجحت هذه الاستراتيجية الاستيعابية، بحيث إن كل جماعةٍ عبد الله بن أُبي بن سلول بعد وفاته التحقوا بالنبي ﷺ.

ولسائلٍ أن يسأل عن السبب الذي جعل النبي ليِّنًا مع عبد الله بن أُبي بن سلول، بينما قتَلَ كعب بن الأشرف وسلام بن مشكم وغيرهما.

ذلك شيء مختلف تمامًا، فعبد الله بن أُبي بن سلول ظاهرة صوتية لا قيمة لها، حيث كان كثير الكلام قليل الفعل، ولم يكن خطرًا أمنيًّا، فكان يتكلم ويُظهِر الإسلام، لكن كان الصحابة يعرفون تفاصيل حياته، بالإضافة إلى أن ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول كان من خيار الصحابة، وكان يعيش معه في داره، فيعرف بالضبط حدود ما يقوم به عبد الله بن أُبي بن سلول. لكن فيما يتعلَّق بكعب بن الأشرف، فقد كان جزءًا من منظومة أمنيَّة واسعة، حيث كان متصلًا بقبيلة بني النضير التي طردها النبي ﷺ، فخرجوا إلى خيبر، وبدؤوا بإعداد العدَّة، وتواصلوا مع قريش، وقاموا بإجراءاتٍ أمنية وعسكرية.

فكعب بن الأشرف كان جزءًا من منظومة أمنيَّة تقوم على محاربة الإسلام والمسلمين والتفاعل مع أعداء المسلمين وجلبهم من أجل معركة كبرى؛ ولذلك أمر النبي ﷺ باستهدافهم.

لكن بالنسبة إلى شخصٍ كان كثير الكلام، والنبي يعرف عنه كلَّ

شيء، فلا داعي لقتله؛ لأنه يعرف أن قتله سيؤذي الكثيرين من أتباعه قبليًّا؛ لأنه كان زعيم قبيلة كما نعرف، ولا يريد النبي الدخول في صراعاتٍ قَبَليَّة في المدينة، فخطره محدود، ولا يستحقُّ أن يتحوَّل إلى أزمة بعيدة المدى ووخيمة العواقب.

لقد تغيَّرت بعد تبوك موازين القوة، ومات عبد الله بن أُبي بن سلول، وحسُنَ إسلام كثيرٍ من أتباعه، وبدأ القرآن الكريم أيضًا في سورة التوبة يشدِّد في موضوع المنافقين ويقصيهم بشكلٍ واضحٍ ويفضحهم؛ ولذلك سُميت سورة التوبة بالفاضحة. فكل شيء في وقته، ووَفْقَ ميزان حكيم.

«رفع السقف».. نحو عالمية غير حاضرةٍ في الأذهان

لقد كان الوعي الجمعي لصحابة الرسول ﷺ وعيًا متفائلًا، وكان النبي في عدة مناسباتٍ يوسع آفاق المسلمين باتجاه العالمية، وقد ذكرت لكم قصة خباب بن الأرت في مكة وقول الرسول له: «والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلَّا الله، والذئب على غنمه».

وعندما هاجر النبي مع أبي بكر رضي الله عنه وطارده سُراقة بن مالك محاولًا أَسْره وإعادته إلى قريش ليحصل على الجائزة التي أعلنتها قريش لمن يُحضر النبي، وَعَده النبي هناك بسواري كسرى، وكان لسراقة أن يقول وقتها في حاله هذه: عفوًا، أنت الآن لا تستطيع الذهاب وحدك ليثرب وتعدني بسواري كسرى.

وقد حدث ذلك بالطبع في زمن عمر رضي الله عنه عندما فُتحت كنوز كسرى، وجيء بسواري كسرى، وكانا شيئًا عظيمًا جدًّا عند العرب، يتسامعون عنهما ممَّن زار إيوان كسرى، فلمَّا ذكرهما النبي لسراقة

قال سراقة: اكتب لي بذلك، فكتب له خطابًا بذلك عليه الصلاة والسلام دوَّنه أبو بكر. ثم بعد ذلك في الخندق، حين كان النبي ﷺ محاصرًا، وقد كانت الخندق من أشد ما واجهه المسلمون في حياتهم، حتى إنهم بدؤوا يشعرون بالحصار من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون، وهنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالًا شديدًا، وفي هذه الواقعة تحديدًا كان النبي عليه الصلاة والسلام يحفر الخندق ويضرب ويقول: الله أكبر فُتِحَت قصور كسرى، الله أكبر فُتِحَت قصور هرقل، الله أكبر فُتِحَت اليمن. فقد كانوا في وضعٍ بالكاد يحمون فيه أنفسهم والنبي يعدهم بفتح عواصم الدنيا.

لقد أسَّس النبي عليه الصلاة والسلام ذلك الوعي الجمعي للمسلمين بأن المستقبل ملكٌ لهم، وأن الإسلام سوف يعمُّ العالم، فلم يبشِّرهم حينها بفتح مكة، ولا بفتح الطائف أو غيرها من مدن الجزيرة، بل رفع السقف إلى المُدن العالمية، التي كانت تُعَدُّ رأس هرم القوة والسلطة في العالم حينها، فقد كان الفرس والروم القطبَيْن العظيمَيْن في ذلك الوقت.

إن هذا كلَّه رفعٌ للسقف واتساعٌ للنظر، فقد بُني الوعي الجمعي للصحابة على أساسٍ عالميٍّ منذ الأيام الأولى للدعوة، فقد وعدهم بعالمية لم تكن حاضرةً على الإطلاق في أذهانهم من قبل.

لقد كان أكبر نصر للعرب قبل الإسلام في معركة ذي قار، وسأسرد هنا قصتها التي بحثت عنها في التاريخ كثيرًا، فمعركة ذي قار وقعت على الأرجح قبل البعثة أو في أيامها الأولى عام ٦٠٩م أو عام ٦١٠م، في حين بُعث النبي ﷺ عام ٦١٠م.

كانت هذه المعركة صغيرة جدًّا، ونشبت بسبب خلافاتٍ ما بين

قبائل بني شيبان والحكم الفارسي على العراق، وحدثت مناوشاتٌ فيما بينهم، وخسر فيها العرب في نهاية المطاف رغم أنهم قاتلوا ببسالة، وكان هذا شيئًا عظيمًا عند العرب، حيث إنهم وقفوا ضد الفرس، وفرح أهل مكة وكل الناس لهذا الخبر العظيم. لكن خلاصة المعركة أفضت إلى أن الفرس تخلَّصوا من حكم النعمان بن المنذر، وأحضروا أحد عملائهم ونصبوه على الحيرة في ذلك الوقت، وكانت سيطرتهم مطلقةً.

لم يكن للعرب هدف استراتيجيٌّ من وراء هذه المناوشات التي تمت على أطراف الصحراء، ولم يكن هناك مسعًى لمغالبة الفرس والروم على نطاقٍ أوسع، وكان أكثر ما لدى العرب هو أن يسترضوا الفرس من أجل أن يعطفوا عليهم في اليمن والعراق اللذين كانوا يسيطرون عليهما سيطرةً تامَّةً، ويسترضوا الروم في بلاد الشام.

لأن حواضر العرب خارج البادية كانت في اليمن الذي كان تحت الاحتلال الفارسي، بالإضافة إلى العراق الذي كان تحت الفرس، والشام التي كانت تحت الروم. وكان العرب وكلاء عن هذه الدول، يحاربون ويقاتلون من أجلها، ويتفاعلون معها، ولم يطمحوا يومًا إلى إقامة حضارة عالمية تؤول إليها أراضي بلاد فارس والروم واليمن والحبشة.

إلَّا أن النبي ﷺ زرع في أذهان الصحابة سيكولوجيًّا ـ منذ اليوم الأول ـ أنهم لن يكونوا خاضعين لسلطة هذه الكيانات العالمية، بل هم من سيُخضعونها لسلطان الإسلام، وأنهم لا يُدرَّبون من أجل مشروعٍ محدودٍ صغيرٍ في جزيرة العرب أو الحجاز أو نجد فقط، وإنما سيكونون سادةً لحضارةٍ تملأُ العالم رحمةً وعدلًا.

وهذا المشروع فيه تفاؤل كبير، بحيث ارتكز على الرسالة.

فأنت لا تستطيع أن تقنع شخصًا بأنه سيفعل هذه الأشياء يومًا ما إذا كنت تشعر نفسيًّا أنك لن تحقِّق هذا أو أنك منهزم. وأعيد مرةً ثانيةً أن شخصية النبي اجتمع فيها البُعْد الاستراتيجي والقيادي والسياسي، لكن ينبغي ألَّا ننسَى أن النبي قبل كل شيء هو صاحبُ رسالة.

فهو لم يعمل بأدوات الاستراتيجية كما فعل معاصروه من الساسة من بلاد فارس أو أكسوم أو اليمن أو بيزنطة، بل جاء بمفاهيمَ جديدةٍ منسجمةٍ مع الرسالة التي جاءته من السماء. وكذلك لم يشتغل بالسياسة كما كان يشتغل بها أمراء الجزيرة العربية، فقد كان عندنا أمراء وملوك في كندة ودومة الجندل وطي وعمان والبحرين واليمن، بل اشتغل بالسياسة بوعيٍ ينبني على أنه صاحبُ رسالة ومنهجية جديدة.

فعندما نقول إنه استراتيجيٌّ لا نقصد أنه استراتيجيٌّ بمعايير ذلك الزمن أو بمعايير زماننا، بل بمعايير جديدة اشتقَّها واستقاها من الأصل الرسالي، وهذه نقطة في غاية الأهمية للذين يدرسون الدراسات المتعلِّقة باستراتيجيات النبي عليه الصلاة والسلام أو بالمبادئ التي زرعها في الاقتصاد أو التي زرعها في الإدارة أو ما إلى ذلك.

بحيث لا بدَّ أن نفهم أن المبادئ التي جاء بها كانت جديدةً على الإنسانية؛ لأنها مستقاةٌ من الرسالة الخاتمة التي تقول للعالمين إنه رحمةٌ للناس أجمعين حتى قيام الساعة.



كيف رأى النبي العالم في زمنه

إن الجغرافيا هي صنعُ الله في الأرض، والتاريخ هو صنعُ الإنسان في هذه الجغرافيا.

لم يكن اختيار مكة لكي تكون مهبطًا للوحي خيارًا بشريًا، بل كانت الرغبة الإلهية كامنةً وراء ذلك، فالله سبحانه أعلمُ حيثُ يجعل رسالته.

يسألُ بعض الناس: لماذا اختيرت مكة لكي تكون مهبطًا للوحي، في معزلٍ عن عواصم العالم الكبرى في ذلك الوقت، مثل القسطنطينية التي كانت عاصمة الحضارة البيزنطية الرومانية الشرقية، أو طيسفون التي كانت عاصمة بلاد فارس، أو الحيرة التي كانت عاصمةً للمناذرة العرب في العراق، أو بُصرى التي كانت عاصمةً للغساسنة، أو صنعاء في الجنوب التي كانت عاصمةً لليمن، أو أكسوم عاصمة الحبشة.

إن اختيار مكة لتكون منطلق الرسالة لهو اختيارٌ عظيمٌ من الناحية الجيوسياسية، فقد جاءت في منطقةٍ محايدةٍ بين كل هذه الكيانات الإقليمية والدولية التي كانت تتقاسم الهيمنة والصراع والتنافس في مطلع القرن السابع الميلادي.

فقد بُعِثَ النبي ﷺ في عام ٦١٠م، وكان العالم يضطربُ

بصراعاتٍ عالميةٍ على كل الجبهات، ولو أن الرسالة جاءت في مكانٍ من هذه الأمكنة لكان التوظيف السياسي للرسالة عائقًا أمامها، مانعًا لاستقلاليتها، حادًّا من قدرتها على التشكُّل الموضوعي المحايد، ولكان من الصعب على النبي وأصحابه أن يؤسِّسوا جيلًا بمثل ذلك النقاء الذي تأسَّس عليه جيل الصحابة في مكة ثم في المدينة.

كيف نفهم الواقع الاستراتيجي للبعثة؟

سنتعامل في هذا الجزء مع رؤية النبي ﷺ للعالم من حوله في تلك المرحلة، أي في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي، وقد استفدنا في ذلك من مصادر عدَّة، وفصلنا الأمر في كتاب «الربيع الأول»، لكن المصدر الرئيس الذي سأبني عليه الحديث اليوم هو القرآن الكريم.

فهناك خمس سُور في القرآن الكريم سنستعرضها تباعًا وهي: سورة البروج، وسورة الفيل، وسورة قريش، وسورة الروم، وسورة الإسراء.

بحيث تكشف لنا هذه السُّور الخمس كيف تشكَّل الوعي النبوي عن العالم في ذلك الوقت، ففي هذه السُّور معلوماتٌ وإشاراتٌ جعلت الدعوة النبوية في مكة، ثم بعد ذلك في المدينة، تسير وفق رؤيةٍ استراتيجيةٍ متكاملةٍ في علاقاتها مع دول الجوار.

نبتدئ بسورة البروج، حيث أخبرنا الله ﷻ عن فئةٍ من المؤمنين تمَّ قتلهم من قِبَلِ فئةٍ معتدِية قذفتهم في خندق وأحرقتهم؛ وذلك لأنهم كانوا من المؤمنين، وكان الذين قاتلوهم من أعداء الله الذين لم يكن لهم أن يستمروا في إيمانهم. فيقول الله ﷻ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج: ٤ ـ ٥].

وقد حدثت هذه الواقعة في نجران، حيث كانت الفئة التي قُتِلَت ووُضِعت في الأخدود من النصارى (المسيحيين)، وكانت الفئة التي قتلتهم من اليهود برئاسةِ رجلٍ كان يُسمَّى «دانياس» وفقًا للمصادر البيزنطية، أو «ذو نواس» وفقًا للمصادر العربية، ويُسمَّى في بعض الأحيان «يوسف بن أسَار». إلَّا أننا نعتمد في رواية القصة على ما كتبه المؤرخون المسلمون، لكن تجب الإشارة إلى أن أكثر تفاصيل هذه الحادثة مدوَّن في زمنه في التاريخ البيزنطي؛ لِما كان يمتاز به من الدقَّة عن باقي تواريخ الأُمم والشعوب في تلك المرحلة، وكان يُدوَّن من قِبَلِ مؤرخين ملحقين ببلاط الإمبراطور، والذين كانوا يؤرخون كلَّ ما يصل إلى البلاط من رسائل ومكاتباتٍ أو من غزواتٍ ومعارك وتحالفاتٍ تتمُّ في زمن ذلك الإمبراطور، ولا تزال هذه الكتب موجودةً بين أيدينا. ولذلك فهي مصدر غنيٌّ بالمعلومات التي يمكن الاسترشاد بها في بناء سياقٍ عامٍّ لكثيرٍ من الأحداث التي رُويت في تاريخنا الإسلامي من دون تفصيل.

سياق محرقة الأخدود

وقعت مجزرةُ نجران (محرقة الأخدود) في زمن الإمبراطور «جستين الأول»، وكان إمبراطورًا للروم، أو للدولة البيزنطية كما يعرفها المؤرخون المتأخرون، نسبةً إلى بيزنطة، أو القسطنطينية عاصمة الدولة. والمصدر الذي سنعتمد عليه في رواية التفاصيل هو مؤرخٌ رومانيٌّ بيزنطيٌّ اسمه «بروكوبيوس»، وكان يكتب باللغة اليونانية، وهو من الذين كتبوا وألَّفوا عددًا من كتب التاريخ، بما فيها تاريخ الحروب الفارسية الرومانية، ويُعَدُّ مرجعًا لكثيرٍ من المؤرخين الذين يعودون إلى كتبه لفهم تفاصيل تلك المرحلة.

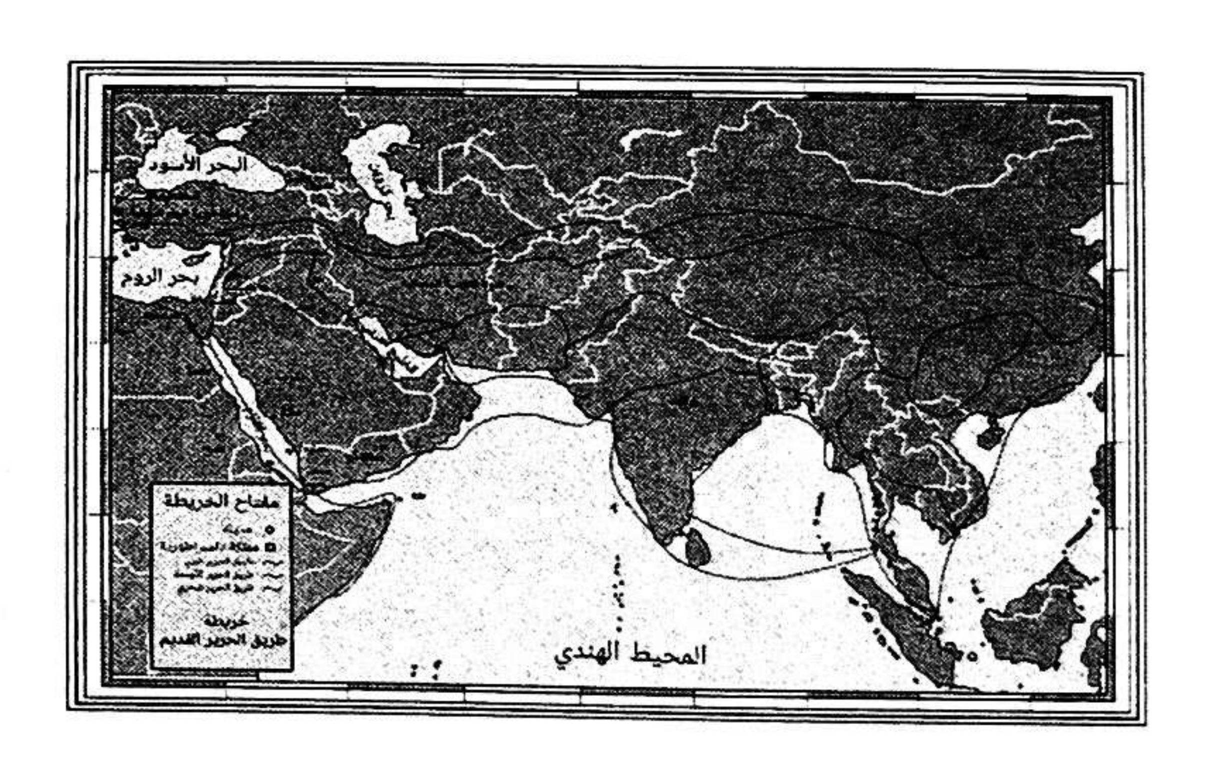
يشير التاريخ البيزنطي إلى أن دولة الفرس كانت تحاول دائمًا أن تسيطر على اليمن؛ لكي تتحكَّم في ميناء عدن ومضيق باب

المندب، ولكي تحرم الروم أو البيزنطيين من التجارة العابرة للبحر والقادمة من الصين والهند إلى عدن، ثم عبر البحر الأحمر إلى ميناء أيلة (العقبة) أو الموانئ المصرية التابعة للهيمنة البيزنطية.

ولهذا فالصراع على اليمن صراع قديم، فالدولة البيزنطية كانت تسيطر في تلك المرحلة على الأناضول والشام كلها ومصر وشمال أفريقيا، وتتحالف مع مملكة أكسوم، أو الحبشة كما يطلق عليها العرب، وقد مكّنها تحالفها مع الحبشة من التدخل في البحر الأحمر بما في ذلك محاولاتها المستمرة للهيمنة على ميناء عدن.

الصراع القديم على اليمن

كان الصراع الفارسي الروماني بدرجةٍ مهمّة ذا بُعْدٍ اقتصاديٍّ؛ لأن طريق الحرير - الذي يُعَدُّ الطريق التجاري الأهمَّ في ذلك الوقت - كان ذا فروع ثلاثة، أهمها الذي يعبر شمال آسيا الوسطى، والثاني طريق بحري يصل إلى الخليج العربي، والثالث بحري هو الآخر يعبر بحر العرب وصولاً إلى ميناء عدن.



لقد كانت منطقة آسيا الوسطى في تلك الفترة ـ أي نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي ـ مضطربةً وفيها ثوراتٌ كثيرة، مما أعاق الطريق البري.

وكانت هناك مملكة تُسمَّى مملكة الهون البيض، وهي مملكة من القبائل التركية التي حاربت الفرس ومنعتهم من أن ينقلوا تجارتهم بشكل ميسَّر؛ ولذلك اعتمد الفرس اعتمادًا أكبر على الطريق الواصل إلى الخليج العربي. أما الروم الذين انقطعت طرقهم البرية أيضًا، فلم يكن لديهم طريق يصلهم بالهند والصين إلَّا الطريق البحري الواصل إلى عدن؛ إذ تبحر السفن الرومانية عبر البحر الأحمر إلى عدن عائدة بالبضائع اللازمة لكلٍّ من أراضي الدولة الرومانية الشرقية ومدن أوروبا. وبما أن هذه الفترة حملت صراعًا هو الأعنف بين القطبَيْن العالميَّيْن، فقد حرص الفرس على حرمان الروم من ميناء عدن؛ لكي يحكموا الحصار الاقتصادي عليهم.

والواقع أن النصارى في نجران هم في الحقيقة من أصولٍ حبشيَّةٍ، ومملكة أكسوم أو مملكة أثيوبيا الحبشية في ذلك الوقت كانت أرثوذكسيةً مسيحيةً تتبع الكنيسة القبطية في مصر، وكانت هذه الدولة مهيمنةً على كل القرن الإفريقي بما في ذلك منطقة أرتريا وأثيوبيا وجيبوتي والصومال الحالية، كما أن الحبشة واليمن تقتسمان تاريخًا مشتركًا قديمًا، يمتدُّ إلى مملكة سبأ التي هيمنت على الجانبين، ومن ثَمَّ فاليمن هو عمق الحبشة الاستراتيجي، واقتضت مصالحها أن يكون لها نفوذ مستمر في الأراضي اليمنية.

لقد وقَّع الروم اتفاق حماية مشتركة بينهم وبين مملكة أكسوم، ففضلًا عن أنهم أتباع دين واحد، أراد الروم الاستفادة من النفوذ الحبشي في اليمن وفي البحر الأحمر لتأمين الطريق التجاري.

ولذلك أرسل الأحباش حاميةً إلى نجران منذ وقتٍ طويل، وكانت هذه الحامية مسيحيةً استقرت في نجران، وتوطَّنت وأسَّست كنيسةً لها، وأصبح هناك مجموعة من المسيحيين في نجران، وكذلك في منطقة ظفار ومنطقة يريم في اليمن، ومن ثَمَّ كان بعض سكان هذه المناطق ذوي أصولٍ حبشية.

تشابك متعدِّد الأبعاد

لقد كان التداخل بين اليمن والحبشة غير مقتصرٍ على النفوذ السياسي القديم لمملكة سبأ، بل تطور إلى تداخلٍ سكانيٍّ وثقافيٍّ ولغويٍّ.

فاللغة الجعزية - التي كانت لغة أثيوبيا - تشترك مع اللسان الحميري في الأصول، وعلى الأرجح كان العرب يفهمون الجعزية والعكس بالعكس، وهو ما أسَّس ترابطًا واسعًا بين الطرفين.

لقد كان هناك تداخل سياسي وكذلك لغوي. وبالمناسبة، لقد تأثَّرت بعض المصطلحات التي وردت في القرآن الكريم من اللغة الجعزية؛ لأن أصولها كانت متصلةً باللغة العربية القديمة. فعلى سبيل المثال، لدينا كلمات في القرآن الكريم مثل: منبر، محراب، سُحت، جبت، طاغوت، قسورة، مَنسأه، مشكاة، اليم. ويقال أيضًا إن كلمة «مصحف» كانت من أصولٍ جعزية. وتفسيرنا لذلك أنها من الكلمات التي تشابكت في وقتٍ قديم مع اللغة الحميرية ثم تعرَّبت، وأصبح العرب المتأخرون يستخدمونها؛ ولذلك لم تكن شيئًا جديدًا، لكنها مُعربة عن الجعزية.

إن المبتغى من هذا الاستطراد هو توضيح كيف أن المنطقة الجيوسياسية بين أثيوبيا واليمن هي في الحقيقة منطقة واحدة على

العديد من الأصعدة؛ ولذلك إن أردنا أن ننظر إليها بوصفها عمقًا استراتيجيًا للحبشة فهذا صحيح؛ ولذلك كان الأحباش دائمًا يريدون أن يكون لهم نفوذ في اليمن أيضًا، ليحموا موانِئهم التي تتاجر مع عدن والتي تتاجر أيضًا مع جزيرة العرب ومع الروم.

لقد كان وجود الفرس في البحر الأحمر إذن خطًا أحمرَ؛ لأنه يهدِّد التجارة الحبشية من أن تكون حرّةً مستقلةً، ومن هنا أسَّست الحبشة حامياتٍ عسكريةً في اليمن.

ولكن لماذا زاد الفرس من نفوذهم في اليمن من خلال دعم اليهود في مطلع القرن السادس الميلادي؟

دعم الفرس والروم لدياناتٍ مختلفةٍ

تجب الإشارة أولًا إلى القاعدة التالية: لقد كانت الدولة الفارسية تدعم اليهود في كل مكان، وكانت الدولة الرومانية تدعم المسيحيين في كل مكان.

فقد كان للفرس منذ زمنٍ قديم علاقةٌ مع اليهود، والسبب في ذلك السَّبيُ البابلي في القرن السادس قبلَ الميلاد الذي جاء باليهود إلى بابل، فاستوطنوا هناك لسنواتٍ طويلة، وأصبحوا مؤثِّرين في الحياة العامة، ويقال إن عدد السكان اليهود من ضمن بلاد فارس في ذلك الوقت وصل إلى ٢٠٪، كما كان بعضهم أيضًا قريبًا من السلطة والنفوذ.

فلمَّا جاء الإمبراطور «سايروس» ـ والد داريوس الأكبر ـ أعاد بعض اليهود إلى الأرض المقدَّسة وفقًا لطلبهم، ويقال إنهم كانوا ثلاثين ألفًا، وهذه بالطبع روايات تاريخية، ولكن ما حدث في هذه المرحلة هو أن اليهود رأوا ـ وفقًا للكتابات التاريخية اليهودية أيضًا ـ أنه قد أُرسِلَ من الله ليعيدهم إلى أرض الميعاد.

ومن ثَمَّ فالعلاقة اليهودية الفارسية علاقة قديمة، ثم إن المعبد أو الهيكل الثاني الذي بناه اليهود في بيت المقدس، كان برعايةٍ ودعمٍ من الفرس. ويعود هذا في اعتقادنا إلى ديانة الفرس المعتقدة بـ «زرادِشت»، وهو مؤسس هذه الديانة منذ القرن السابع قبل الميلاد. وقد كان «زرادشت» يؤمن بالتوحيد واليوم الآخر، ويؤمن ببعض أسماء الله الحسنى، ونجد ذلك في آثار قديمة تتبع الديانة الزرادشتية الأصلية، وأعتقد أن ذلك من أسباب التقارب بعد ذلك مع اليهودية التي كانت تؤمن أيضًا بالتوحيد.

ولذلك لم يكن اليهود تحت ضغط أن يتحوَّلوا إلى الزرادشتية؛ لأن الفرس كانوا يرون الديانة الزرادشتية ديانةً قوميةً، وكان اليهود يرون الديانة اليهودية ديانةً قوميةً، فكان اليهودي يؤمن باليهودية ويؤمن الفارسي بالزرادشتية، ولا يحاول أحدهما اجتذاب الآخر؛ لأنك إن كنت من الفرس فأنت زرادشتي، وإن كنت من اليهود فأنت يهودي.

وقد كان هذا مريحًا للإمبراطورية حتى لا تدخل في امتزاجٍ دينيٍّ، فكلٌّ يعرف حدوده وكلٌّ يعرف شرائعه. والذي حدث هنا أنَ التاريخ اليهودي مع الفرس كان تاريخًا فيه دعمٌ من الدولة الفارسية لليهود في كل مكان، وقد انعكس هذا الدعم لاحقًا في اليمن.

دُعِمَت المجموعة المتدينة يهوديًا وعُيِّنَ عليهم رجلٌ من الأقيال (أمراء المناطق) اسمه «يوسف بن أسار» أو «ذو نواس» أو حسب المصادر البيزنطية «دانياس»، وطُلب من هذا الرجل أن يُنهي النفوذ المسيحي في اليمن، فيضرب بذلك النفوذ الحبشي البيزنطي، ومن هنا بدأت معركة ذي نواس ضد المسيحيين، فقتل منهم أعدادًا كبيرةً.

ثلاث مصادر للتوثيق

لحسن الحظ أن هناك نصًا مكتوبًا بلغة المسند وُجِدَ على بعض الجدران في منطقة قريبة من نجران، وكُتب هذا النص في زمن ذي نواس وعلى لسانه، وقد تطرق إلى المحرقة، وكان فيه متكلمًا عن نفسه، والنص موجود وبالإمكان الاطلاع عليه، ويطلق عليه تسمية «بئر حما» باللغة السبئية.



صورة لنص بئر حما للملك الحميري

«وقد أفلح الملك في هذه المعركة في قتل ١٢٥٠٠ (اثني عشر ألفًا وخمسمائة قتيل) و١١٠٩٠ (أحد عشر ألفًا وتسعين سبيًا)» ـ مقتطف من النص المنقوش المترجم.

يتكلم هذا النص عن أن ذا نواس قد حارب المسيحيين في نجران وحرقهم في ظفار ويريم وذمار، وأنه قتل منهم في نجران أكثر من ١٢ ألفًا، وكان مجموع المسيحيين تقريبًا ٢٠ ألفًا آنذاك، وهذه رواية موجودة نصًا على الحجر في منطقة بئر حما بالقرب من نجران.

وهناك نصٌّ آخر مهم جدًّا، وهو نص «بروكوبيوس» اليوناني المقيم في القسطنطينية، فقد أرَّخ لمجموعة أحداث في ذلك الوقت، منها زيارة رجلٍ من اليمن اسمه «دوس ذو ثعلبان»، حيث قدم هذا الرجل إلى القسطنطينية وطلب لقاءً عاجلًا مع جستين الأول (الإمبراطور)، وقصَّ عليه أخبار المحرقة التي وقعت، وكتبها بروكوبيوس في كتابه نصًّا، وتطابقت روايته مع رواية النصوص السبئية الموجودة في نجران.

ثم هناك رسالة أخرى كتبها بروكوبيوس أيضًا لأُسقُف نجران، وكان اسم هذا الأُسقُف هو الأسقف شمعون، حيث كتب عام ٥٢٤ للميلاد ـ والمعركة حدثت عام ٥٢٣م ـ رسالةً إلى الإمبراطور وصف فيها ما حدث وصفًا دقيقًا، ووصف مشاهد من المحرقة بما فيها المرأة التي أُلقي أبناؤها في النار ولم تقبل أن تتحوَّل عن المسيحية.

إلَّا أن الأمر المهمَّ جدًّا في هاتين الروايتَيْن هو أنهما متعاضدتان، وتؤيدان الرواية التي وُجِدَت في بئر حما، ومن ثَمَّ فمحرقة نجران حدثت في الفترة بين عامي ٥٢٣ ـ ٥٢٤م، وهذا قبل الإسلام بفترة لا تقلُّ عن حوالي ٨٦ عامًا، فقد بُعث النبي ﷺ عام ٦١٠م.

الحياد بوصفه ضمانًا للبقاء وقت الصراع

حسنًا، لماذا يحدِّثنا القرآن عن هذه المعركة في فترة مبكِّرة من البعثة؟

الحقيقة أن الذي حدث في نجران هو صراعٌ فارسيٌّ روميٌّ باختصار! وهو صراع دوليٌّ، فكل طرفٍ كان له فئة تتبعه، وهذه الفئة

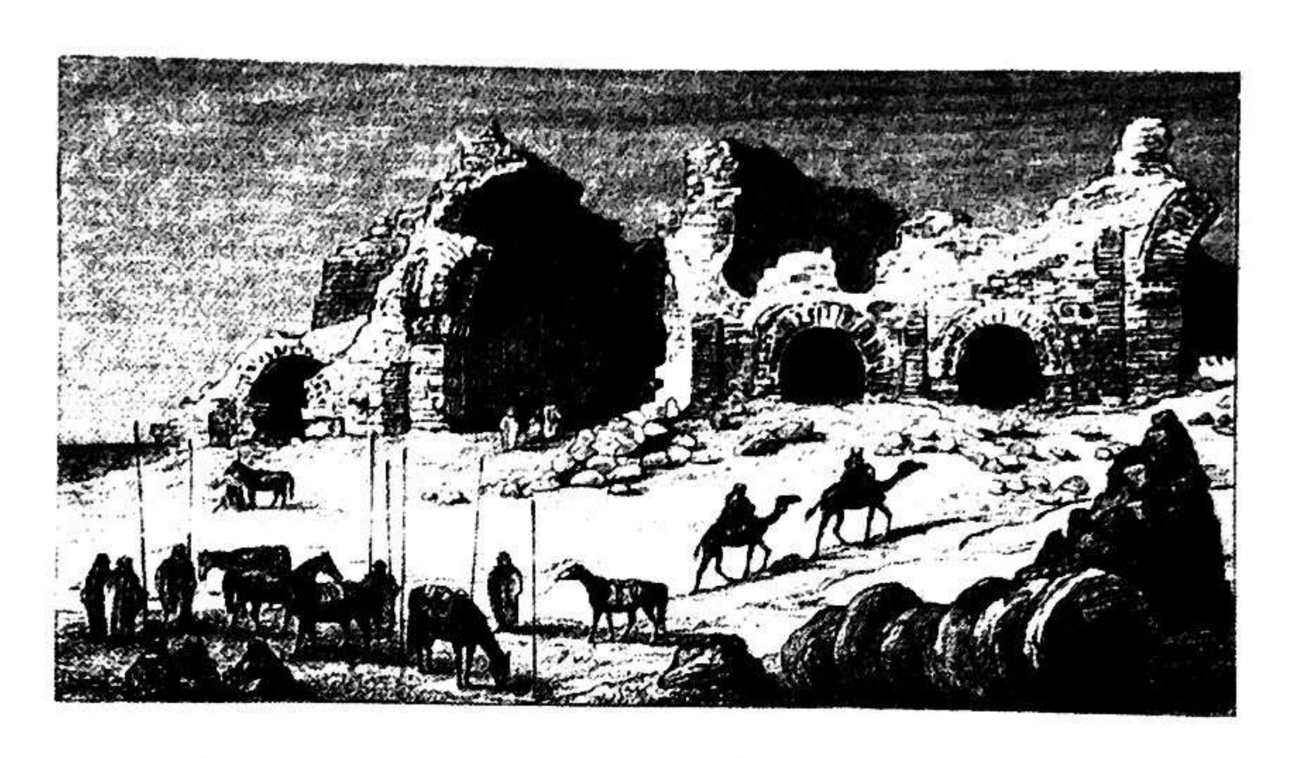
في حالة اليهود الذين يمثلُهم يوسف بن أسار كانت منحازةً إلى الفرس، وكان المسيحيون ينحازون إلى الروم أو الأحباش.

لكن الذي حدث هنا أن الصراع في نجران بسبب حالة الاستقطاب والانحياز التي يعاني منها العالم في ذلك الوقت، لم يسمح بأن يكون هناك متَّسع في العالم لعدم الانحياز، ولكن تكلفة الانحياز هائلة كما اتضح في نجران، فإن كنت مع أي طرفٍ من الأطراف فسوف يتمُّ استخدامك من ذلك الطرف في حربه المسعورة ضد الآخر، فالرسالة الأهم التي وصلت إلى أذهان العرب في مكة بعد نجران، هي أن الانحياز خطيرٌ على مكة.

وتوثق سورة البروج أهوالَ هذا الصراع؛ ولذلك ينبغي ألَّا تنحاز مكة نحو الفرس ولا نحو الروم، فقد كانت رسالة مذبحة نجران أصلًا استراتيجيًّا ضروريًّا لاستمرار مكة في مأمنٍ عن الصراع الدولي، وهو ما يمكن تسميته بعدم الانحياز القُرَشي، فإن أردت أن تستمرَّ في هذا العالم ذي القطبية الثنائية القاتلة، فيجب عليك ألَّا تنحاز لأحد. وهذه النقطة نقطة مهمَّة جدًّا، وسنلاحظ كيف أن ذلك طُبِّقَ في مكة طوال القرن الذي يليه.

لم تكن مكة مهمَّة جدًّا في ذلك الوقت عالميًّا، لكنها كانت واقعةً على خط الطريق الذي يصل اليمن بالشام ويصل اليمن بالعراق، فإذا أردت أن تتاجر مع الفرس في العراق ومع الروم في سوريا، فهل ينبغي عليك أن تنحاز لأي تكتلٍ دوليٍّ في ذلك الوقت؟

بالطبع لا! لأن علاقتك ينبغي أن تكون طيبةً مع الجميع، حتى تستطيع أن تسير بقوافلك آمنًا في الصحراء.



لكن يوجد شيء مهمٌّ جدًّا في الوعي القرشي، وهو أن الفرس كانوا مُقدمين على الروم، ليس بسبب الدين، كما كان يعتقد بعض المؤرخين الذين قالوا بأن الفرس كانوا عبَدَةً للنار، أو أن المسيحيين كانوا أقربَ للمسلمين، فلم يكن ذلك صحيحًا من وجهة نظر التعامل الاستراتيجي.

فالصحيحُ أنه كلما نشبَ صراعٌ بين الفرس والروم، كان ذلك أفضلَ لمكة تجاريًا. والسبب أنه مع كل صراع، ينغلق البحر الأحمر أمام السفن الرومية، فتبدأ بلاد الشام في الاعتماد على الطرق البديلة العابرة للصحراء لنقل المنتجات والبضائع من اليمن إلى الشام؛ ولذلك تنتعش تجارة مكة ويزداد عليها الطلب.

وهذا يعود على مكة بالثراء. لكن في حال السلام الدولي، وعودة السفن الرومية إلى البحر الأحمر، فإن الطلب على قوافل قريش يقلُّ كثيرًا؛ لأن السفن أرخصُ وأسرع من القافلة، فإنْ عُدتَ بالسفينة من عدن إلى العقبة فلماذا تحتاج إلى قوافل مكة؟

وهذه قاعدة وجدناها في كل الحروب التي دارت، والحروب

الفارسية الرومانية قديمة جدًّا، فنحن نتحدَّث عن ٧٠٠ سنة من الحروب بين الكتلةِ الفارسية والكتلةِ الغربية الممثلة في اليونان، وبعد ذلك في الدولة الرومانية الغربية ثم الدولة البيزنطية (الرومانية الشرقية)، وقد ارتبط الصراع دائمًا بطرق التجارة، وكان لليمن دائمًا شأنٌ في هذا الأمر.

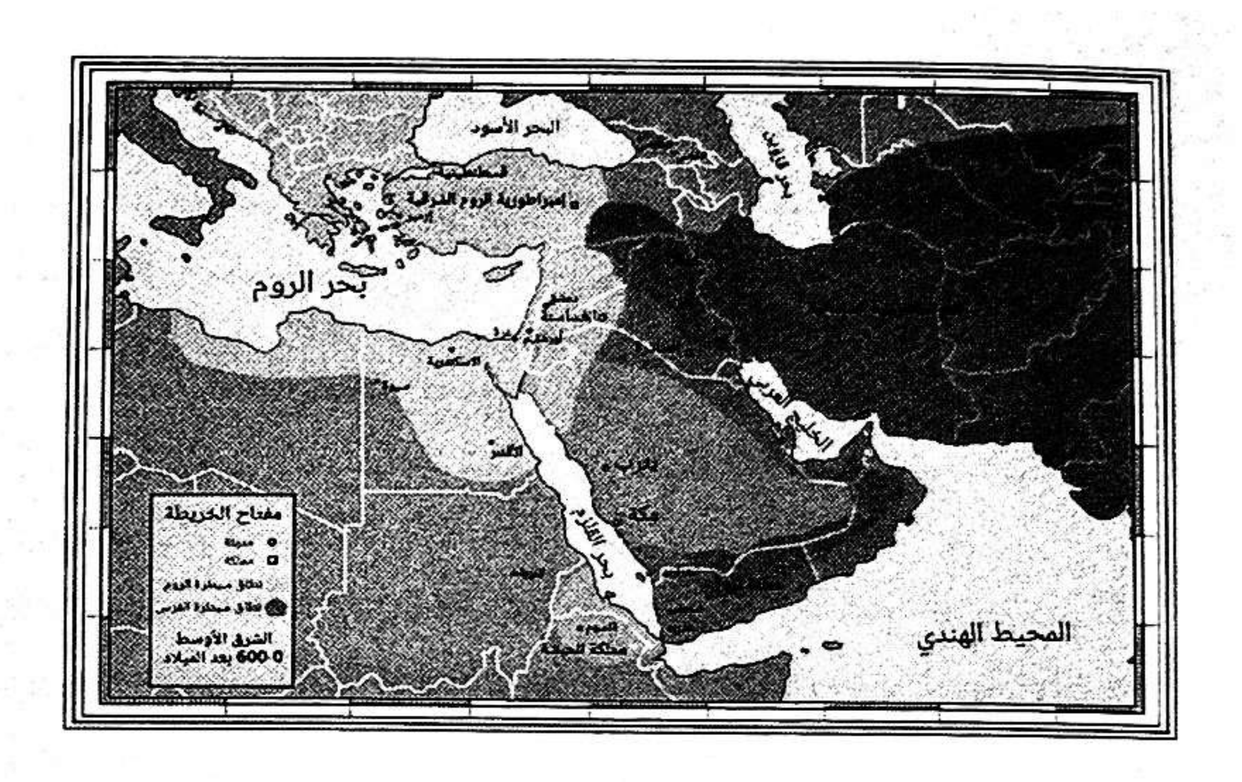
وفي الفترة التي بحثناها - فترة ما بين هاشم بن عبد مناف ومبعث النبي ﷺ - كانت فترات الحروب تؤدي إلى ازدهارٍ اقتصاديٍّ في مكة، وتؤدي فترات الأمن والسلام إلى كساد بضائع مكة؛ ولذلك أقول: إن سفينة الصحراء (الجَمل) تزدهر عندما تتوقَّف سفينة البحر، والعكس بالعكس، وهذه قاعدة مهمَّة جدًّا تفسِّر ميل قريش النفسي إلى الفرس على حساب الروم.

ولهذا فأهل مكة يحبون انتصار الفرس على الروم في اليمن؛ لأن انتصارهم سيوكل مهمَّة نقل البضائع إلى الشام لهم وبأسعارٍ عالية، والشام تحتاج إلى هذه البضائع؛ لأن بعض ما يأتي منها من الهند والصين ضروريٌّ للكنائس في أوروبا وكنائس القسطنطينية، مثل البخور واللبان التي كانت توقد في الكنائس، وكان مصدرها الرئيس الهند، ومن ثَمَّ تعبر القوافل من جزيرة العرب للشام محمَّلة بها إلى بُصرى أو إلى غزة ثم بالبحر إلى أوروبا كما ذكرنا سابقًا.

وكانت كثير من قوافل قريش تنتهي إلى غزة، والدليل أن هاشم بن عبد مناف - الجد الثاني للرسول ﷺ - كانت تجارته إلى غزة وتُوفي فيها؛ لأنها كانت الميناء الرئيس على البحر الأحمر الذي تُنقل فيه البضائع إلى أوروبا. ومن هذا القبيل كانت قريش تذهب إلى غزة وتنقل البضائع، أو في بعض الأحيان إلى العقبة، ثم بعد ذلك تنقلها قوافل أخرى إلى الإسكندرية وإلى بلاد الشام.

الإيلاف: نظام مكة الاقتصادي

النقطة المهمَّة التي نريد أن نؤكِّد عليها هنا هي أن محرقة نجران كانت مزعجةً لأهل مكة بسبب هذا الصراع الفارسي الرومي القريب منهم، ولكن مكة قد استفادت اقتصاديًا بعد هذه الحادثة. فنجران التي كانت من المراكز التجارية الكبرى في جنوب جزيرة العرب قد خفَتَ نجمُها، فأصبحت الطائف أكثر نشاطًا، ثم مكة من بعد ذلك.



وتجب الإشارة هنا إلى أننا نتحدَّث عن نشاطٍ تجاريٍّ قليلٍ، فنحن نتحدَّث عن زمن هاشم بن عبد مناف المُبكر، هذا الأخير الذي عاش طويلًا عكس ما ورد في السير، فالرواية المتداولة ليست دقيقة، فيبدو أنه عاش أطول مما رُوي، فأنا أعتقد أن هاشم بن عبد مناف كان لا يزال حيًّا لفترة أطول، لا سيما إذا أخذنا إيلاف قريش بالاعتبار، وإيلاف قريش هو الاتفاقات التجارية التي وقَّعها هاشم بن عبد مناف ثم أبناؤه بعد موته مع كلٍّ من القبائل الواقعة

على طرق التجارة، حتى لا تعترض قوافل قريش المسافرة عبر الصحراء، وكان يدفع بالمقابل نوعًا من الضريبة لحماية هذه القوافل، ويشمل الإيلاف أيضًا الاتفاقات التجارية مع السلطات المحليَّة التي تحكم بلاد الشام والعراق واليمن وكذلك الحبشة.

إذن، فإن هذا الإيلاف هو مناخ من التحالفات، وعندما يكون لديك إيلاف مع كل المتناقضين، فمن المفترض ألَّا يكون لديك موقف سياسيٌّ من أحدهم، وهذا ما رسخ في أذهانِ المكيين منذ زمن قريش، فمكة محايدة سياسيًّا.

وبالعودة إلى الملك جستنيان، فعندما وصلت هذه الرسائل من نجران إلى الملك في القسطنطينية، أدركَ الخطر الاستراتيجي المحيط باليمن وبتجارة البحر الأحمر، فأرسلَ إلى حلفائه في الحبشة طالبًا إرسال جيش إلى اليمن وتحريرها من النفوذ الفارسي، فأرسلت الحبشة جيشًا إلى اليمن اشتبك مع ذي نواس حتى عام ٥٢٧م، فقُتِلَ ذو نواس وأُقيم الحكم الحبشي المباشر في اليمن حتى عام ٥٣٢م.

عهد أبرهة

جاء حينها رجلٌ طموح حبشيٌّ اسمه «أبراموس» في النصوص البيزنطية، وهو الذي نسميه أبرهة ويسمي نفسه أبراهام أو إبراهيم. ونجد قصته بالتفاصيل عند بروكوبيوس؛ لأنه وثَّق المشكلة التي وقعت. والمشكلة هي أن أبرهة قد سيطر على اليمن بانقلابه على الحاكم الحبشي، وما إن تمكَّن من السلطة حتى انفصل عن الحبشة، ورغم كونه حبشيًّا فقد نصب نفسه ملكًا لليمن؛ ولذلك أطلَقَ على نفسه النصَّ التالي: «إنني أنا أبرهةُ ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في المرتفعات والدهائم»، وقد عرفنا هذا اللقب

أيضًا من نقوش اللغة السبئية في منطقةٍ قريبةٍ من نجران، وتصف هذه النقوش على لسان أبرهة مجموعةً من الأحداث الكبرى التي حدثت، بما فيها أنه قاد حملةً من الجيش عبر الصحراء لمطاردة قبائل العرب الذين يقومون بتهريب البضائع إلى الفرس.



«تصف هذه النقوش على لسان أبرهة مجموعةً من الأحداث الكبرى التي حدثت»

وحكى بروكوبيوس أن أبرهة عندما استلم الحبشة، بعث الإمبراطور جستنيان - ابن أخي جستين الذي خلفه على العرش - رسولًا برسالة إلى أبرهة، وذكر أن الرسالة تقول لأبرهة إن عليه ثلاثة أشياء: أولها أنه ينبغي له محاربة قبائل العرب التي ما تزال تنقل البضائع إلى العراق لأنهم حلفاء للفرس، وثانيها أنه يريد منه طرد السفن الفارسية الموجودة في عدن، وثالثها أنه يريد منه أن يتصالح مع حليفه ملك الحبشة (أكسوم).

وقد وافق أبرهة على هذه المطالب. وبناءً على ذلك، بنى أبرهة كنيسةً في صنعاء نحن نسميها «القُلَيس»، وهي اسم مُحرَّف أصله باللغة الجعزية «قَلَسن»، وهي كلمة تعني الكنيسة، وأهداها إلى ملك الحبشة، وكتب إليه رسالة صلح يخبره فيها أنه بنى له كنيسة وأنها عربون صلح، استجابةً لطلب جستنيان البيزنطي. ثم منع السفن الفارسية من بعد ذلك، مع العلم أننا نجد في المصادر نفسِها الموجودة في اليمن أن وفدًا من الفرس جاء ليلتقي بأبرهة، ويخبره باستعدادهم لمنحه الحراسة الكافية بشرط منع الروم المتصارعين مع الحبشة، لكن أبرهة شعر أن انحيازه للروم أقوى من انحيازِه للفرس، فلم يستجب لهم. ومن ثَمَّ طرد السفن الفارسية، وقاد حملةً نحو الصحراء.

كانت هذه الفترة بين عامي ٥٤٠ و٥٤٥م، وهي قبل ولادة النبي ﷺ بحوالي ٢٥ إلى ٣٠ سنة، فقد وُلِدَ النبي عليه الصلاة والسلام في عام ٥٧٠م. وأبرهة الذي قاد الجيش عبر الصحراء لتأديب القبائل العربية لم يُذكَر في النصِّ الموجود لدينا أنه مرَّ بمكة، وإنما يتكلَّم عن الطائف وتبوك وعن قبائل حاربها ثم عاد منتصرًا حسب الرواية.

فصار لدينا إشكالية، وهي أنه إذا كان النبي ﷺ وُلِدَ عام الفيل، أي عام ٥٧٠م، فكيف يكتب لنا التاريخ على لسان أبرهة وبروكوبيوس أن غزو أبرهة لبلاد العرب تمَّ قبل ذلك بما يقارب الثلاثين سنة؟

والحقيقة أنه بعد البحث في هذا الأمر، دلَّنا أحد الباحثين الأتراك ـ وهو الأستاذ محمد أبايدن ـ على شيء لم نكن منتبهين له،

وهو أن أبرهة صاحب الفيل الذي جاء إلى مكة ليس أبرهة الأول، والذي هو أبراموس الذي كان في اليمن في عام ٥٣٢م، وإنما هو حفيده واسمه أبرهة بن الصباح، وأمه كانت ابنة أبرهة الأول، وكان أبوه حِميريًا.



«نقوش تصف حادثة الفيل»

وقد آلت إليه الأمور فترة من الزمن، وقام بمهاجمة مكة كما في قصة الفيل. وهنا انحلَّت الإشكالية، فقد انتقل الحكم إلى ابن مسروق بعد أبرهة؛ لأنه على الأرجح مات عام ٥٦٠م، ثم بعد ذلك انتقل الحكم إلى حفيده أبرهة الذي كان قائد الجيش الذي وقعت في زمنه حادثة الفيل، وكان ذلك حوالي عام ٥٧٠م.

نار الانتقام تصل إلى جزيرة العرب

بالعودة إلى الصراع الفارسي الرومي، وكيف أثَّر ذلك في مكة، نجد الحاصل أن حلفاء الروم جاؤوا لهدم مكة في زمن الفيل، وهي القصة الثانية التي نودُّ التطرق إليها. فقد لفت الله ﷻ نظرَ المسلمين إلى أن معركة الأخدود كانت بسبب انحيازٍ وصراعٍ دوليّ، وأدت إلى مقتل المؤمنين الذين كانوا من النصارى، وأن هؤلاء كانوا على الأرجح من الموحدين، الذين كانوا يتبعون مذهبًا مسيحيًا يؤمن بالتوحيد، وهو مذهب «آريوس»، رغم ما تحتاجه هذه المسألة من بحثٍ وتدقيقٍ.

لكن الذي حدث بعدها، هو أن شرر نجران تشكَّلت منه الحرب التي سيطر الأحباش فيها على اليمن، ومن ثَمَّ حاولوا إخضاع مكة وهدم الكعبة عبر غزوة الفيل.

ولكن، لماذا أرادوا هدم الكعبة؟

كانت الكعبة في تلك الأثناء الرمزَ الجامع لكل العرب، أي إن نفوذ مكة لم يكن فقط في القوافل التجارية القليلة التي تذهب بين اليمن والشام، والتي حاول أبرهة إيقافها، ولكن كان للكعبة قوة رمزية للعرب جميعًا، وكان المراد من هدمها هو إضعاف مكانة مكة وتحويلها إلى قرية هامشية.

ومن هنا يبدو أن تفكير الأحباش كان يروم بالفعل إضعاف مكة من هذه الجهة، ولكن نعرف بالطبع أن هذه الحادثة قد أدت إلى ضرب هذا الجيش ولم يستطع تحقيق نفوذه، ووُلِد النبي ﷺ في تلك الأجواء، فإذا كانت حادثة الفيل قد وقعت في عام ولادته أو قبلها

بقليل، فمعنى ذلك أن فكرة الصراع على اليمن والصراع بين الفرس والروم كانت حاضرةً في أذهان القرشيين وفي ذهن النبي ﷺ الذي أُرِّخَ لولادته بمعركةٍ حدثت بسبب الاستقطاب الدولي بين الفرس والروم في اليمن. وهي مسألة في غاية الأهمية.

نرجع قليلًا لنذكر معلومة مهمَّة، وهي أن الرومان حاولوا منذ عهدٍ بعيدٍ السيطرة على جزيرة العرب وعلى طريق التجارة الذي يعبر بين نجران وبين اليمن وما بين بلاد الشام، فأرسلوا بعثةً في وقتٍ مبكِّر جدًّا، في حدود عام ٢٤ للميلاد، حيث بعثوا بعثةً من حاكم مصر الروماني الذي قطع البحر الأحمر بسفن إلى ميناء «ينبع»، ثم قادهم إلى يثرب. ونجد هذا أيضًا في التاريخ اليوناني القديم. وقد شرح المؤرخ «سترابو»، الذي كتب تفاصيل هذه البعثة، وكان مشاركًا بنفسِه في هذه الحملة التي بلغت ٣٠ ألف مقاتل من الرومان، وتاريخه مشهور، شرح هذا المؤرخ كيف جاؤوا إلى يثرب ثم ذهبوا جنوبًا باتجاه نجران، وأرادوا غزو اليمن والسيطرة عليها عسكريًّا عبر البر، ولكن حال المرض والجوع والصحراء دون ذلك، ومات كثيرٌ من الجُند واضطرت هذه البعثة الرومانية أن تنسحب. فكان طمع الرومان أيضًا في جزيرة العرب قديمًا من أجل السيطرة على تجارة الصحراء.

مكة لَقَاح

نعود إلى الأمام أيضًا قليلًا، حيث كان هناك رجلٌ أرَّخ له المؤرخون المسلمون، وحاول أن يكون ملكًا على مكة نيابةً عن الروم، واسمه «الحارث». إذ قال لأهل مكة إن قيصر عيَّنه ملكًا على مكة، فإذا رفضوا فإن تجارتهم مع الشام ستنقطع، وحاول إقناعهم بأنه ابنُ البلد وسينادي بنوعٍ من النظام يكون الكلُّ فيه سعيدًا.



قبِل أهل مكة ذلك في البداية خوفًا من الروم، ولكن الوعي الاستراتيجي لأهل مكة حال دون إنفاذ الأمر؛ لأنه في اليوم التالي الذي ينبغي أن يجتمع فيه الناس لينصبوه ملكًا، وقف رجلٌ وقال: يا آل عباد الله، أفي تهامة ملك؟ فقيل إنهم انحاشوا انحياش الحمر البرية، وقالوا: لا والله! فمكةُ لَقَاح (أي لا تُملَك)، وبقيت مكة كذلك.

فلم تُملك ولم يكن لديها ملك، بل لديها مجموعة من الناس يحكمون عبر دار الندوة، مثل مفهوم مجلس الشيوخ في النظام الروماني القديم، لكن لم يكن هنالك ملكٌ بمعنى الرجل الحاكم المتفرد بالسلطة. إذن، فعندما نادى الرجل: أفي تُهامةَ ملك؟ استيقظ لديهم الحسُّ الجمعيُّ بالخطر، فقالوا: لا والله! لا يكون في تهامة ملك؛ لأنه لو كان في تهامة ملك مُقرَّب من الروم فسوف يخسرون اقتصاديًا في اليوم الذي ينتصر فيه الفرس.

العصر الذهبي القرشي

نعود الآن إلى النقطة الأخرى المهمَّة، وهي سورة الروم [١ ـ ٥] ومتى نزلت؟ فقد قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ متى؟ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فالإشارة التي تعطينا المفتاح لمكان الهزيمة ووقتها كانت أن هذه الهزيمة الرومانية أمام الفرس وقعت «في أدنى الأرض»، وأدنى الأرض كان بلاد الشام، وبالتحديد في شهر أبريل/ نيسان من عام ٦١٤م حين احتلَّ الفرس بيت المقدس وسيطروا عليه، وكان هذا العام ـ حسب ما أعتقد ـ هو الذي نزلت فيه سورة الروم، وهذه أكبر معركة ذات دلالة رمزية فائقة لارتباطها ببيت المقدس، وقد وقعت الحادثة بعد البعثة النبوية بأربع سنوات.

تقول السورة إن هناك معركة دولية، وهم يعلمون بذلك طبعًا؛ لأن قوافل قريش التي تجوب الصحراء تخبرهم بتطورات الحرب المشتعلة بين الطرفَيْن منذ عام ٦٠٢م، والفرس آنذاك ـ بين عامي ٦١٤ و٦١٦م ـ موجودون في الشام، وفي عام ٦١٧م سوف يدخلون مصر ويسيطرون على الإسكندرية.

لقد انقطع الوجود الروماني في الشام ومصر، وانقطع نفوذهم في البحر الأحمر، وأصبح الفرس هم المسيطرين عليه، وكان ينبغي لأي قوافل من قريش أن تستفيد من هذه الأزمة الدولية، وأن تسارع لجني الأرباح. وهذا الذي أسميه بالعصر الذهبي لمكة، وقال المؤرخون إن الدينار في هذه الفترة كان مربحًا بعشرة أضعاف رأس المال.

فرحت قريش لانتصار الفرس؛ لأن انتصارها ثراءٌ لمكة وازدهارٌ لتجارة الصحراء العابرة للحدود. وفي المقابل، فإن مزيدًا من الثراء لمشركي مكة لم يكن خبرًا طيبًا للمسلمين، لكن السورة تبلغهم أن انتصار الفرس مؤقَّت، وأنه عمَّا قريب سوف ينهزمون، وسيكون ذلك في بضع سنين، وسوف يقع في زمنٍ يفرح فيه المسلمون بنصر الله.

لقد بدأ العصر الذهبي لمكة في رأيي منذ عام ٦٠٢م حتى فترة هجرة النبي ﷺ وبداية الحصار الاقتصادي الذي فرضه النبي على قوافل قريش بعد الهجرة، أي عام ٦٢٣م. وبالفعل، نلحظ أن الثراء في مكة في هذه الفترة أصبح فاحشًا، وأصبح لدينا تجَّار على درجة عالية من الغنى، كالوليد بن المغيرة وعبد الله بن جدعان وغيرهما، وقد انتشرت مظاهر الترف بين السادة، فكان الواحد منهم ـ على سبيل المثال ـ يمشي ومن خلفه عشرة من المرافقين (العبيد). وكانت لديهم الموائد، واستغلوا المال في السؤدد والهيمنة والسيطرة.

ولذلك كان وَقْع انتصار الفرس مصدرَ فرح بالنسبة إلى قريش، وكان انتصار الروم مبعثَ حزن لها. أما بالنسبة إلى تعليل فرح المسلمين الموعود بأن المسيحيين أهل كتاب مثل المسلمين، فإن ذلك بعيد عن التحقيق؛ وذلك بالنظر إلى تفاصيل المشهد الاستراتيجي الذي خطَّه المسلمون طوال السنوات القادمة، بل سيكون الروم في الحقيقة هدفًا استراتيجيًا للنبي ﷺ في ثلاث محطاتٍ هي: غزوة مؤتة، ثم غزوة تبوك، وكذلك بعث أسامة بن زيد. بينما لم يرسل إلى الفرس في حياته أية بعثة عسكرية؛ لأن الخطر الأكبر عليهم كان من قِبل الروم والقبائل العربية المتحالفة معها.

وسيفرح المؤمنون بعد بضع سنين؛ لأن انتصار الروم الموعود سوف يقع في الفترة نفسِها التي انتصر فيها المسلمون في معركة بدر.

مذبحة القدس

وهنا نقطة مهمَّة أريد أن أشير إليها. فقد أشرت إلى وجود مذبحة في عام ٥٢٣م كانت في نجران، قادها يهوديٌّ اسمه ذو نواس بدعم من الفرس ضد المسيحيين، ولكن هناك أيضًا مذبحة أخرى قبل أقل من مائة عام، ولكن كانت هذه المرة في القدس ويقودها اليهود بدعمٍ فارسيٍّ.

ونعرف في التاريخ أن اليهود شاركوا بعشرين ألف مقاتل مع الجيش الفارسي الذي دخل القدس واحتلَّها عام ٦١٤م؛ وذلك لأن هناك نصًا كتبه أسقف للقدس اسمه «انطيوكوس» يتكلم فيه عن صفة دخول الفرس إلى القدس ومعهم اليهود، وكيف أنه قُتِلَ من المسيحيين في ذلك اليوم ما لا يقلُّ عن ٩٠ ألفًا.

ثم سلَّم الفرس المدينة لليهود، وعُيِّن حاكم يهودي يتبع الدولة الفارسية عليهم، هو ديهيمينا بن هوشيل، واسمه موجود ومكتوب نصًا في التاريخ اليهودي والبيزنطي، فكان حاكم القدس الفارسي يهوديًا، وأراد أن يبني الهيكل الثالث وذلك بدعمٍ من الفرس في مارس/آذار أو أبريل/نيسان ٦١٤م، ولمَّا أراد بناء هذا الهيكل ثار طرفان من المسيحيين، هما: المسيحيون في داخل القدس، والمسيحيون الموجودون مع الجيش الفارسي.

فلا ننسى أن الجيش الفارسي فيه المناذرة العرب، وكانوا أيضًا من المسيحيين، ولم يريدوا هم أيضًا أن تُهدم الكنائس ويُبنى الهيكل؛ ولذلك ضغطوا على القائد الفارسي «شهربراز» - وهو مشهور بأنه مَن قاد حملة ضد بلاد فارس جميعًا وانتصر - فمارسوا عليه ضغوطًا. وفي عام ٦١٧م - بعد ثلاث سنين فقط - أُخرِج اليهود من القدس وسُلِّمَت المدينة إلى قسٍّ مسيحيٍّ.



لقد زار النبي ﷺ بيت المقدس في رحلة الإسراء، وذلك على الأرجح في العام العاشر للبعثة، أي عام ٦٢٠م، وكانت المدينة تحت النفوذ الفارسي، وكان الصراع محتدمًا عليها بين اليهود والمسيحيين، وما بين فئةٍ تريد أن تعيد الهيمنة المسيحية (وهم النصارى العرب الموجودون في الجيش الفارسي وداخل المدينة) وجهاتٍ فارسيةٍ ترى أن الحليف الاستراتيجي هم اليهود الذين أسهموا في دخول المدينة. فجاءت رحلة الإسراء طارحةً لطريق جديد.

العقد الاجتماعي الأخلاقي شرطٌ للاستمرارية

لقد شكَّل الإسراء طَرحًا يعود ببيت المقدس إلى أصل العبادة الخالصة لله، بعيدًا عن الصراع الدموي والتوظيف السياسي، فهذه المدينة هي مدينةُ إرثٍ للأنبياء جميعًا، يمثلهم النبي الخاتم ﷺ. ومن هنا نزلت سورة الإسراء. وتلفت سورة الإسراء نَظَرنا لا إلى رحلة الإسراء والمعراج فقط، وإنما إلى سُنَّة الله سبحانه في التعاطي مع أهل الكتاب، والذين هم في هذه الحالة بنو إسرائيل عندما أسَّسوا مُلكًا، وأنهم كلما أسَّسوا هذا الملك أصابهم فساد السلطة بالطغيان، فوقع تدمير ملكهم.

وليس هذا خاصًا ببني إسرائيل حصرًا، بل بأية أُمَّة لا تحسن ضبط السلطة بمعيارٍ أخلاقيٍّ يضمن العدل والاستقامة. *ولم تذكر لنا سورة الإسراء هذه المعلومات عن بني إسرائيل من أجل المعرفة التاريخية فحسب، وإنما ذُكِرَت من أجل أن يعتبر النبي ﷺ والمسلمون من بعده حتى يومنا هذا، بأن أخلاق بناء الدولة تقتضي العدل وتقتضي نظامًا اجتماعيًّا ونظامًا أخلاقيًّا، وهو ذلك النظام الذي فصلته سورة الإسراء.*

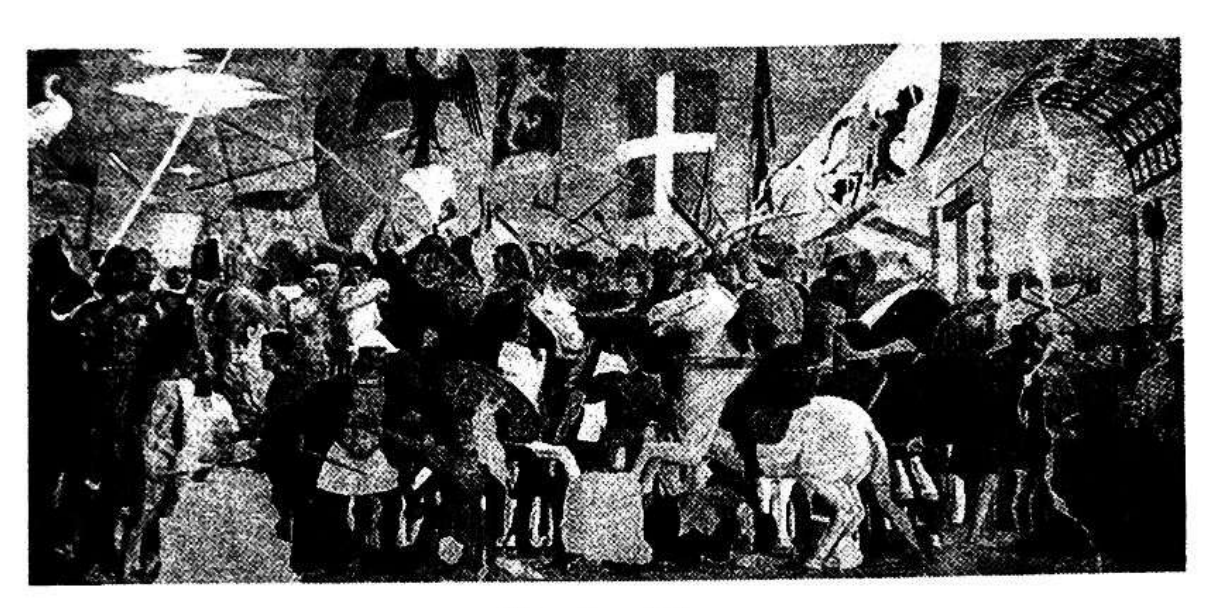
لذلك نلاحظ كيف انتهت الخاتمة في سورة الإسراء [١٦] بالحديث عن بني إسرائيل عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾. وليس هذا خاصًا ببني إسرائيل، بل بكل من يؤسِّس كيانَ حكم ويطغى، فسوف يقع عليه الطغيان وينهار. والمقصود من وراء هذه الرسالة أنك أنت يا محمَّد ستهاجر عمَّا قريب إلى المدينة وتؤسِّس فيها دولة؛ فلذلك انتبه إلى قواعد بناء الحكم القويم، واستفِد من درسٍ قد وقع في أدنى الأرض ومن قِبل قومٍ هم أيضًا أهل كتاب.

إن سورة الإسراء لا تقدِّم رؤيةً سياسيةً فحسب، بل عقدًا اجتماعيًّا وأخلاقيًّا؛ ولذلك فالمراد أنك إن أردت أن تؤسِّس دولةً فالحاجة إلى هذه الأخلاق والقيم محورية لاستمرار النظام السياسي، وإلَّا فإن النظام السياسي سينهار. وهذه سُنَّة الله ﷻ تجري على كل الأُمم: السلطة تُطغي، والطغيان يستدعي الهلاك.

ولذلك نجد في سورة الإسراء كذلك إشارةً في غاية الأهمية للمرحلة القادمة التي سيتم فيها بناء الدولة، والآية هي: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، وهي مؤشرٌ للنبي ﷺ بأن يتهيأ ليخرج مخرج صدق

وهو مكة، ويدخل مدخل صدق وهو في المدينة (يثرب في ذلك الوقت)، وأن يكون له سلطانٌ من المسلمين الجدد الذين سيأتون من الخزرج والأوس نصيرًا.

إذن، كانت أولى إشارات الهجرة موجودةً في سورة الإسراء، والله أعلم، وجاءت لكي تعلِّم النبي عليه الصلاة والسلام كيف يبني نظامًا أو دولةً من غير أن تقع هذه الدولة في نفس ما وقعت فيه القُرى والأُمم والحضارات السابقة. وضربت له مثالًا بما وقع في بيت المقدس في عامٍ كان الصراع لا يزال محتدمًا فيه على بيت المقدس (عام ٦٢٠م).



«معركة هرقل والفرس»

لقد أشارت سورة الروم إلى انتصارهم بعد بضع سنين. وتجدر الإشارة إلى أن أولَ انتصار نعرفه من التاريخ الروماني قد وقع في عام ٦٢٣م، وذلك عندما قام هرقل بقيادة مجموعة من المحاربين، والتفوا حول الجيش الفارسي الذي كان يحاصر القسطنطينية. ففي أواخر عام ٦٢٣م، قامت معركة وصلت أخبارها إلى النبي ﷺ بعد غزوة بدر، فكان فرح المسلمين مزدوجًا كما أسلفنا: فرحهم بانتصار الروم على الفرس (ويقول بعض الصحابة ممن روت عنهم كتبُ

السيرة إن خبر انتصار الروم وصلهم بعد غزوة بدر)، وفرحهم الأكبر بانتصارهم على أهل مكة.

توجيهات ربانية وفعل نبوي

يسأل كثيرٌ من الناس عن طبيعة العلاقة بين الوحي وبين تصرفات النبي بالإمامة؛ ولذا تجب الإشارة إلى بعض النقاط التي أوردها كالتالي:

لقد قدَّم القرآن للنبي ﷺ منهجًا متكاملًا للحياة، وهذا المنهج المتكامل شكل وعيًا بطبيعة الرسالة وقيمها وروحها، ونجد فيما يتعلَّق بالفعل النبوي الاستراتيجي موجهاتٍ عامَّة كتلك التي وردت في سورة البروج وسورة الفيل وسورة قريش وسورة الروم وسورة الإسراء، وهذه وغيرها قدَّمت وعيًا استراتيجيًّا وإدراكًا لكليات الإسلام ومقاصده في الشأن العام. *لكن أفعاله وتصرفاته وقراراته المتمثلة في الغزوات والسرايا، وتوقيتها وأولوياتها، والتحالفات مع القوى والقبائل، والاتصالات التي سبقتها وأعقبتها، وتقدير مصلحة المسلمين في إبرام المعاهدات، كان معظم ذلك من فعل النبي وتقديره المباشر، على الرغم من نزول الوحي بعد الواقعة مصوِّبًا ومعلِّمًا وموجِّهًا ومستخلصًا للعبر، وقد رأينا ذلك في آيات القرآن التي أعقبت الغزوات، مثل بدر وأحد والخندق والحديبية وتبوك وغيرها.*

وقد استخدمتُ كلمة «معظم» أفعاله وقراراته وليس كلها؛ لأننا نجد مثلًا في سورة التوبة أمرًا مباشرًا من الله سبحانه لنبيِّه في العام التاسع للهجرة ببداية عهدٍ جديدٍ في التعامل مع المشركين وفي علاقة المشركين بالحرم، والتي منح فيها القرآنُ المشركين مهلة أربعة أشهر

يسيحون فيها في الأرض، إلَّا من كان بينه وبين المسلمين عهد. فهذا كان أمرًا من الوحي مباشرًا، وهو ما كان له تبعاتٌ استراتيجية على الأرض، ومثل ذلك ما ورد في السورة نفسِها من نهيٍ للنبي أن يصلي على أحدٍ مات من المنافقين أو أن يقوم على قبره.

من هنا، فالوحي حاضر من خلال تشكُّل الوعي العام وبناء المنهج، أما إنزال المنهج على الواقع فكان من فعله واجتهاده ﷺ، ومستندًا على شورى من المسلمين، ومبنيًا على تقييم لموازين القوة وكذا على فهمٍ عميقٍ لشقوق الصراعات الموجودة في ذلك الزمن وكيفية توظيفهاً، فللنبي منهج في الفعل الاستراتيجي واضح، ونسق متكامل، تجده في أفعاله الممتدَّة من هجرته وحتى وفاته.

فعلى سبيل المثال، لم يكن النبي يبادر لقتال عدوين في آنٍ واحدٍ، ولم يكن يسمح لمعسكره بالتشظي، وكان صاحب المبادرة في معظم الأفعال الاستراتيجية من حربٍ أو حصارٍ لقريش أو تحالفٍ مع القبائل، وقد أشرنا إلى بعضٍ من هذا فيما تقدَّم.

إذن، فقد ظلَّ الوحي حاضرًا في تشكُّل الوعي الاستراتيجي الكلي، ومثال ذلك سورة قريش، التي أعطت النبي ﷺ مفاتيح قوة قريش، وهما: التجارة والبيت: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش: ١ ـ ٢] و﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]. وأصل كل استثناء أو ازدهار قرشي هو البيت، فهو الذي منحهم الأمن، والمكانة الرفيعة، ومن دون البيت فلا تجارة ولا أمن، ومن دون الكعبة فإن مكة لا قيمة لها.

ونجد أن سورة قريش شكَّلت وعي النبي ﷺ في التعامل مع قريش، فأسقط هذا الوعي على الواقع من خلال استراتيجيتَيْن: الأولى تجلَّت في قطع التجارة عن قريش في الشهور الأولى من

وصوله إلى المدينة، فضرب العنصر الأول للقوة القرشية، وهو الإيلاف التجاري. والاستراتيجية الثانية تحقَّقت بعد الخندق، عندما استهدف الركيزة الكبرى للاستثناء القرشي، وتجلَّت في استحواذ قريش على الحرم، فبادر إلى العمرة، فوضع قريشًا في مأزقٍ كبيرٍ، حيث لا يستطيعون منعه من العمرة، فيقول العرب إن قريشًا تمنع المعتمرين، ولا يستطيعون السماح له، لأنهم سوف يبدون ضعفاء، فكان أن قدَّم لهم الحلَّ، واقترح الهدنة، فكانت الحديبية هي التجلي الأهم للمبادرة النبوية؛ ولذلك سمَّاها القرآن فتحًا مبينًا.

نظام توحيدي جديد

لقد قام الوحي بتلقين النبي ﷺ أن العالم على شفا انهيارٍ تامٍّ بسبب ما اكتسبته أيديهم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وأن الدين - كل الدين - كان مهددًا بسطوة السلطة القاهرة في زمن الاستقطاب الدولي الهائل. فاليهودية أداة بيد الفرس، والمسيحية بيد الروم. ولم يكن هناك دينٌ خالصٌ لله ﷻ. من هنا، فالتوظيف السياسي للأديان قد أضعفها وأفرغها من محتواها، ودفع أتباع هذه الأديان لخدمة القوتَيْن العظميَيْن في ذلك الزمن، من دون أن يخدم أحدٌ الدينَ بوصفه دينًا خالصًا لله.

ولذلك كان لا بدَّ من دينٍ جديدٍ منفكٍّ عن الصراع الدولي، يؤسِّس لتوحيدٍ قائم على الحنيفية الإبراهيمية، وقائم على عدم الانحياز لأيٍّ من هذه القوى، بل على تأسيس منظومةٍ جديدةٍ من العدل تختلف عن القوة البيزنطية والقوة الفارسية، وتروم عدم احتكار السلطة والمال، ولا تستغلُّ الشعوب لخدمة نفسها، ولا تجبرهم على أن يكونوا عبيدًا لنَهَمها وجشعها المادي.

لقد جاء النبي ﷺ بمنهج تحرُّر إنساني عام، تحرُّر فكري وانعتاق سياسي. والصراع الذي تحدَّثت عنه سورة الروم بقي ماثلًا في ذهن النبي ﷺ، فكانت غزوة مؤتة، ثمَّ من بعدها غزوة تبوك، ثم من بعد ذلك بعث الصحابي أسامة. ويجب التنبيه إلى أمرٍ مهمٍّ هنا، وهو كونها كلها باتجاه الشمال صوب بلاد الشام، وآخر بعثٍ كان بعث أسامة حين أمره النبي ﷺ أن يطأ البلقاء والداروم من أرض فلسطين (والداروم على الأرجح يقع في جنوب غزة). فكان التوجيه له ولصحابته من بعده أن الجبهة التي ينبغي عليكم أن تقصدوها هي بيت المقدس وفلسطين، وقد تمَّ فتح بيت المقدس بعد ذلك على يد عمر رضي الله عنه بعد زمنٍ قصيرٍ من وفاة النبي ﷺ.

لقد كانت الرسالة من وراء ذلك أن عليكم أن تستعدوا للسيطرة على بيت المقدس؛ لأن السيطرة عليه تعني السيطرة على جزءٍ أصيلٍ من الشرعية التي يقوم عليها الدين، والسيطرة على بلاد الشام أيضًا هي إنهاء للوجود البيزنطي.

ومسألة إنهاء الإمبراطوريتَيْن الفارسية والبيزنطية ضرورة لانبعاثِ عالمية إسلامية قيمية، تُكمل مكارم الأخلاق، ولا تنحصر في شعوب ولا أعراق.



النبي القائد والنبي الإنسان

هناك ثنائية عظيمة في حياة النبي ﷺ، أو لنقل إن هناك جانبَيْن من شخصيته. فقد اجتمع فيه القائد والإنسان، ولم أجد مبررًا للفصل بين هذين الجانبَيْن من حياة النبي. فعلى سبيل المثال، لا يجوز القول بأن النبي القائد ﷺ يختلفُ منهجيًا عن النبي الإنسان في بيته وبين أهله؛ ذلك أننا اعتدنا في عالم البراغماتية السياسية أن نقول بضرورة الفصل بين الحياةِ الشخصيَّة والحياةِ العامَّة للساسة والقادة، والقول في ذلك هو أن الإنسان في حياته الخاصَّة ذو طبيعةٍ يحتاج فيها إلى قدرٍ عالٍ من الحرية الشخصيَّة في بيته وبين أهله، ومن ثَمَّ ليس لأحدٍ الحقُّ في الاطلاع عليها. أما السياسي في ممارساته العامَّة، فيلتزم بمجموعةٍ من النُّظُم والقواعد، وتكون سجلاته شفافيةً ومكشوفةً ومُعرَّضةً للمحاسبة.

«سُنَّة التوفيق».. في تجاوز الانفصام

إلَّا أن المسألة في حياة النبي ﷺ مختلفةٌ لسببٍ جوهريٍّ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام أُسوة لنا جميعًا في كل شيء، فهو أُسوة لنا فيما يتعلَّق بالجوانب الخاصَّة والعامَّة، وفي المناحي الإنسانية والقيادية أيضًا. وذلك على الرغم من وجود اختلافٍ لما تقتضيه

الجوانب القيادية من أوامر ينبغي الالتزام بها، يشاور فيها أصحابه ثم يعزم الأمر فيصبح قرارًا مُلزِمًا على الناس السَّمْع والطاعة فيه، ولما تقتضيه الجوانب ذات الطبيعة الشخصية، كسيرته في أهله وسماته الخُلقية بوصفها عِبرًا يقصُّها المسلمون عادةً للتأسي والاقتداء، حبًّا في النبي وطلبًا لكمال اتباع سُنَّته.

إن ما يتعلَّق بالمناحي ذات الطبيعة القيادية، كمنهجه في التعامل مع أصحابه في الشأن العام، والمناحي الاستراتيجية من غزواتٍ وسرايا وتحالفاتٍ ومعاهداتٍ، فهذه وافرة غزيرة في كتب السيرة، كما في ذلك الشأن المتعلِّق بالجوانب الشخصية من حياته ﷺ، التي وصلنا الكثير عنها أيضًا. ويعود الفضل في ذلك إلى كبار صحابته ونسائه اللواتي نقلن لنا كلَّ شيء عن تفاصيل حياته في بيته ومنزله، وبعض هذه التفاصيل جاء ردًّا على أسئلة وجَّهها المسلمون لنسائه؛ لِما ينبني عليها من أحكام شرعية، وقد جاء بعضها ليعكس جوانبَ من خُلُقه وأسلوبه.

إن من أصعب الأشياء لدى القادة كيفية التوفيق بين الحياةِ الشخصيَّة والحياةِ العامَّة؛ ذلك أنهم قد يخرجون للملأ ويكون لهم شأن رفيع في عالم السياسة، لكن عندما يتعلَّق الأمر بخصوصية بيوتهم، فإنهم يواجهون عقباتٍ وإخفاقاتٍ كبيرةً؛ ولذلك يكون لديهم صعوبةٌ في التوفيق بين الداخل والخارج.

أما في حال النبي ﷺ، فنلاحظ أن هناك تداخلًا وانسجامًا تامًّا بين هذين البُعْدين، والتداخل سببه أن النبي عليه الصلاة والسلام كان حريصًا على أن يسُنَّ لنا في حياته وللأجيال التي ستأتي من بعده سُنَّةً حسنةً في التوفيق بين كل أنواع الحياة وجوانبها المختلفة؛ ولذلك فإن حالة الانفصام أو التفريق التي تؤول إلى فصلِ النُّظُم الخاصَّة في

حياة الإنسان عن النُّظُم العامَّة لم نلحظها في حياته ﷺ، بل كانت جميعًا تخرج من روحٍ واحدةٍ. ولذلك فأُمّنا عائشة رضي الله عنها عندما تحدَّثت عن النبي قالت: «كان خُلُقُهُ القُرآن»، وهذا منبع واحد لكل شيء، فلم يكن خلقه الشخصي الخاص، بل كان كله نابعًا من القرآن.

الرحمةُ أساسُ الرسالة

إن العودة إلى القرآن توضِّح - كما ذكرنا سابقًا - كيف أن التكليف الأول للرسول ﷺ كان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فخُلُق النبي في كل تعاملٍ نابعٌ من أنه رحمةٌ للعالمين. وعندما نقول العالمين، فإننا لا نقصد المسلمين أو المؤمنين فقط، وإنما معنى العالمين يستوعب كلَّ أبعاد الخلق، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، سواء كانوا إنسًا أو جنًا، كائناتٍ حيَّة أو تلك التي نجدها في الطبيعة من خلقِ الله.

وانطلاقًا من هذه القاعدة الأساسية، فإن منبع كل خُلُقٍ للرسول ﷺ ينبثق من أنه رحمةٌ للعالمين، ومن لطائف النص القرآني قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

فلم يقُل إن النبي والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، بل قال «محمدٌ رسول الله»، وقد اكتملت الجملة هنا، لكن الذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم. لقد اكتفى بوصفِ

النبي بأنه رسول الله، ولم يجمعه مع أصحابه في مسألة الشدَّة على الكفار؛ وذلك لأن النبي رحيمٌ بالجميع وفقًا للتكليف الإلهي الرئيس له بأنه رحمةٌ للعالمين، وليس للمؤمنين فقط؛ ولذلك مُيِّزَ عن بقيَّة أصحابه بإسناد وصف الرسالة إليه وما تقتضيه من خُلُقٍ رحيمٍ شامل.

أما لماذا ينبغي أن يكون المؤمنون أشداء على الكفار، فهذا من ضرورات التدافع بين الحق والباطل، ومن الضروري أن يكون أصحاب النبي الذين هم حوله أشداء على الكفار، يبادلون شدَّة الكفار عليهم بالمثل، بينما يتصفون فيما بينهم بالرحمة. أما النبي ﷺ، فقد كان بالطبع رحيمًا بالمؤمنين: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهذه رحمة ذات طبيعة خاصَّة، تختلف عن الرحمة العامَّة التي تقتضيها الرسالة، وهي رحمة تشمل جميع المخلوقات من كل جنسٍ ونوعٍ؛ ولذلك فعندما ناقش المفسرون آية سورة الفتح، انحاز الطبري إلى كلام ابن عباس فيها، وأعجبني ما قاله هذا الأخير:

«النبي ﷺ رحمةٌ للمؤمن وللكافر؛ لأنه رحمةٌ بالمؤمن بأن هداهُ به الله ﷻ وأدخله في الإيمان، ورحمةٌ للكافر لأنه دفع عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأُمم المكذبة من قبلهم». فالفكرة الرئيسة هي أن النبي ﷺ رحمةٌ للجميع، وأما صحابته رضوان الله عليهم فكانوا رحماء بينهم أشداء على الكافرين.

ومن هذا المنطلق، أودُّ الإشارة إلى قصتَيْن تتطرقان إلى كلٍّ من الجانب القيادي والجانب الشخصي للنبي ﷺ؛ وذلك لكي نستشفَّ

مجموعةٌ من المفاهيم، وحتى ننظر أيضًا في الحالتَيْن ونكتشف التداخل الذي أتكلم عنه، وكيف أن كل شيءٍ ينبع من أساسٍ رئيس، ألَا وهو الرحمة.

ماذا إن لم تأتِ «الشورى» بأفضل الخيارات المُمكنة؟

لقد كان لدى الرسول ﷺ قاعدةٌ في القيادة، ألَا وهي الشورى، ولأهميتها فقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه في كل شأنٍ عامٍّ ذي بالٍ، كالحرب والتحالفات. وكان الصحابة في البداية يسألونه قائلين: يا رسول الله، أهو أمرٌ أمرك به الله أم هو الحرب والرأي والمشورة؟ فيقول: هو الحرب والرأي والمشورة.

ولقد سُئل النبي ﷺ في ثلاث وقائع على الأقل السؤال نفسه، وكانت الإجابة نفسها بأنها الحرب والرأي والشورى، ولم يُسأل بعدها هذا السؤال لأن الشورى أصبحت قاعدةً في حياة الصحابة، باعتبار أن كل أمرٍ عامٍّ يتعلَّق بالسياسة والحرب والتحالفات هو من شأن الرأي والمشورة وليس وحيًا، ولهم كامل الحرية أن يقترحوا ويتفقوا ويختلفوا وينصحوا فيه.

ولذلك كانوا يبدون آراءهم بحُريَّةٍ تامَّةٍ على اعتبار أنه قد وقر في أنفسهم مع الزمن أن هذا الشأن ـ الحرب والاستراتيجيات والتحالفات ـ هو من شؤون الرأي والشورى. ثم ترسخت الشورى من بعد ذلك بعدما أمرَ الله ﷻ النبي ﷺ أن يشاورهم في الأمر، ونزلت هذه الآية في أعقاب معركة أُحد.

وأحبُّ أن أشير هنا إلى نقطة مهمَّة، وهي أن مشاورة النبي لأصحابه في معركة أُحد أنتجت قرارًا بالخروج من المدينة، ولم يكن

القرار حينها صائبًا، ولم يكن النبي مع الخروج، لكنه أخذ برأي الغالبية، وبما أن قرار الخروج الناتج عن الشورى كان خطأً، فمن الطبيعي أن يشكِّك الناس في جدوى الشورى بعد هذه الواقعة، فيوكلوا الأمر كله بعد ذلك إلى رأي النبي ﷺ من دون حوار ولا نقاش. كيف لا، وقد كان رأي النبي ﷺ هو الأصوب، ولو أنهم سمعوا له لما تكبَّدوا الخسائر التي تكبدوها عندما خرجوا من المدينة لقتال العدو. فقد كانت نتيجة الشورى خاطئة، وكان من الطبيعي أن ينقاد الناس من دون رأي ولا تفكُّر في المواجهات القادمة لرأي النبي، فتنهدم الشورى؛ ولذلك جاءه القرآن بعد معركة أُحد ليجعل الشورى ركنًا رئيسًا من أركان القيادة النبوية، ويجعلها كذلك مكملًا للأسباب التي جعلت الصحابة يتبعون النبي، وجعلها على النحو التالي: الرحمة، واللين، والعفو، وطلب المغفرة لهم، والشورى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وترتيب هذه الآية ترتيب بديع؛ لأنها قدَّمت المعاني الخُلُقية من رحمة وعفو ومغفرة لتصل إلى الشورى، باعتبار أن الشورى تحتاج إلى كلٍّ هذه الأخلاق لكي تتمَّ وتستمرَّ على الوجه الأكمل، فالشورى تؤدي أحيانًا إلى أخطاء تستوجب العفو والمغفرة، وتخرج أحيانًا عن مقتضيات الرقَّة واللين، لا سيما عندما ترتفع الأصوات ويحتدم النقاش وتتباين الآراء، وهو الأمر الذي يستلزم الرحمة واللين.

ولذلك نزل الأمر الإلهي على النبي ﷺ حتى يشاور الناس بعد معركة أُحد. مع أن نتيجة الشورى في أُحد تحديدًا لم تكن أفضل

الخيارات الممكنة، ولكنها تبقى كمنهجٍ في القيادة عمومًا أفضل المناهج وأكثرها نفعًا وفائدةً.

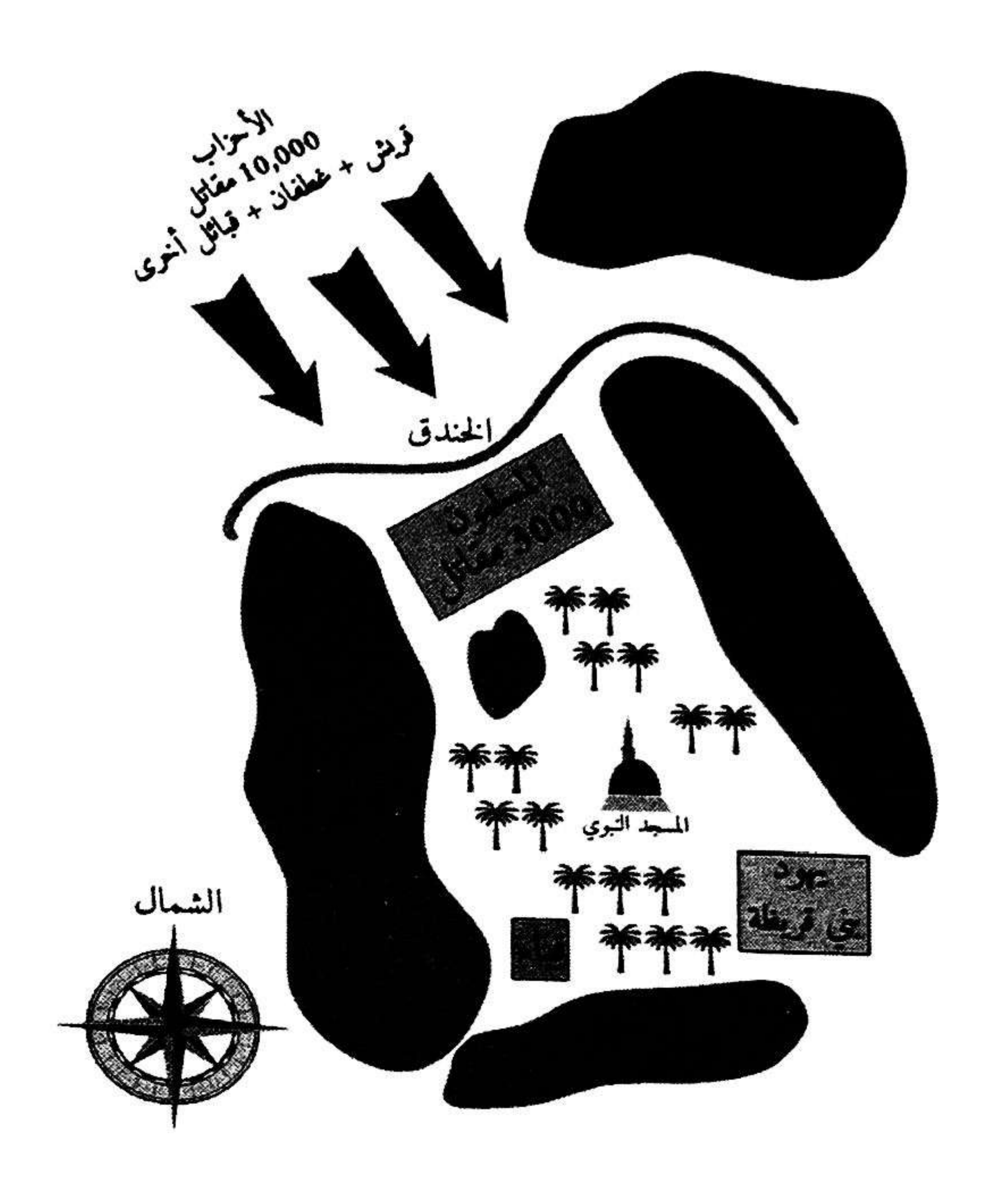
القائد يُربي «جيلًا من القادة» لا الأتباع

لسائلٍ أن يسأل: بما أن النبي ﷺ أذكى الخلق ولديه الوحي، فلماذا يقوم بالاستشارة؟

والحقيقة هي أن الشورى في المسائل التي تهمُّ المجتمع لها مجموعة من الأهداف دائمًا، أحدها أنك تصل إلى القرار السليم بأخذك لكل وجهات النظر.

فعندما شاور النبي ﷺ أصحابه في غزوة الخندق، جاءت فكرة سلمان الفارسي رضي الله عنه بأن يحفر خندقًا، ولم تكن الفكرة موجودةً عند العرب سابقًا، فلم يقل قائل: هذا شيء لم نعهده ولا نعرفه، وفيه مخاطرة كبيرة، ثم إن سلمان الفارسي لم يكن من علية القوم، ولا من زعماء البطون والقبائل، بل كان عبدًا حرَّره المسلمون، فلم يقل قائل: مَنْ هذا المولى الضعيف ليتقدَّم في الرأي على أهل النَّسَب والسيادة والتجربة؟

لقد تقدَّم سلمان بالفكرة الجديدة لينقذ بذلك المدينة من هزيمة محقَّقة، فتلقَّف المسلمون فكرته هذه من دون حرج، ونفذوها بالفعل. وهذه نتيجة للشورى في أجمل وأبدع تجلياتها، فإن كانت معركة أُحد قد جاءت بقرارٍ شوريٍّ خاطئ، فإن الشورى في غزوة الخندق أنقذت المسلمين من خطرٍ أكبر.



كان النبي ﷺ يربي جيلًا من القادة المبادرين والمبدعين، ولم يكن يسعى إلى تجميع أتباع، فلم يكن يريد رعيَّةً تنظر إليه بأنه مصدر كل شيء، وأنه لا رأي لهم إلَّا أن يقولوا سمعنا وأطعنا، بل كان يحرص على أن يشاركهم الرأي ويستمع لهم حقًّا وفعلًا، وذلك لكي يصلوا إلى أفضل ما يمكن أن يصل إليه المجتمع المسلم في مثل هذه الحالات. ولذلك تمرس الصحابة على

المسؤولية والقيادة منذ بداية الكيان الإسلامي في المدينة، ورسخ في وجدان كل واحدٍ منهم أن رأيه مهمٌّ، وأن دوره محفوظ، فهو شريك فعليٌّ في الشأن العام، وليس مجرَّد تابعٍ يُؤمَر فيطيع من دون وعي ولا سديد نظر.

ثم إن هناك معنًى آخر زرعته الشورى في النفوس، ألَا وهو الحرية. إذ لم يجد الصحابة حرجًا في أنفسهم أن يعبِّروا عمَّا يجول في خاطرهم، بل رأوا ذلك واجبًا يقتضيه انتماؤهم للأُمَّة المسلمة، فأزالت الشورى عنهم السلبيَّة والانزواء، وأذهبت عنهم الخوفَ والانكفاء، فها هم يبادرون بالتعبير عن آرائهم، وكانت في كثيرٍ من الأحيان ذات طبيعةٍ استراتيجيةٍ مهمَّة، مثل اختيار موقع معسكر بدر، وموقع إقامة الجيوش المسلمة في خيبر، وغيرها من الأشياء التي بادر المسلمون الشباب مثل «الحُباب بن المنذر» وغيره في إبداء الرأي تطوعًا للنبي ﷺ، فيقولون: يا رسول الله، هذا ليس بالمقام الذي ينبغي أن نُقيمَ فيه عسكريًّا، والأفضل أن نتأخَّر نحو الخلف أو نذهب إلى المكان الفلاني. ولذا فقد درَّبهم النبي ﷺ على المبادرة وحرية المنطق.

هل شاور الرسول أصحابه في «الحديبية»؟

يحتجُّ كثيرٌ من الناس بقصة الحديبية، فيقولون إن رسول الله ﷺ لم يشاور أصحابه فيها، ورأينا كيف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه غضب غضبًا شديدًا ولم يكن يريد أن تتمَّ هذه الاتفاقية، وهي الحادثة التي نعرفها جميعًا. إلَّا أن ذلك في رأيي ليس صحيحًا.

فعندما كان النبي ﷺ وأصحابه متجهين إلى مكة، خرج إليهم

خالد بن الوليد في منطقة عسفان، فاجتمع النبي ﷺ مع أصحابه واستشارهم، وقال لهم إن هؤلاء قد خرجوا لقتالهم ونحن كُنا ذاهبين للحرم فماذا تقولون؟ فوقف أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، نحن الآن ذاهبون إلى الحرم، لا نريد أن نقاتل، ولكن إن هم بادروا بالقتال ندافع عن أنفسنا.

فأقرَّ الصحابة ذلك، وكان التفويض للنبي ﷺ من مجموع أصحابه في الحديبية بألَّا تتمَّ مبادرة القوم بقتالٍ إلَّا في حال الدفاع عن النفس. ولذلك تفادى الرسول ﷺ عُسفان حتى لا يلتقي بخالد، الذي كان وقتها زعيمًا لسرية أرسلتها قريش لمواجهة النبي ﷺ، واختار طريقًا آخر خارج إطار المواجهة المباشرة مع خالد حتى وصل إلى الحديبية.

لقد كان واضحًا عند الصحابة أن هذه الرحلة لم تكن رحلة قتال، وقد كان هذا متفقًا عليه ومتشاورًا فيه، فالذين يقولون إن النبي لم يشاور في الحديبية، فهو قد شاور قبل الوصول إليها. وفي هذه الشورى صدر القرار بأن هذه الرحلة ليست للقتال، وأنها ليست غزوة تقليدية كبدرٍ وأُحد والخندق، وقد كان ذلك تفويضًا مُنح للنبي ﷺ.

ولقد اقترح النبي ﷺ ـ بعد قرار عدم القتال ـ الهدنةَ على قريش، وقال لبديل بن ورقاء الخزاعي: لو أنهم مدوا بيننا وبينهم مُدَّة (أي هدنة)، وكان معلومًا لدى عموم المسلمين أن الهدنة هي التي سوف يسعون إلى تحقيقها، فقد ظلَّ النبي ﷺ طوال الطريق يتكلم عن أنهم ـ أي قريش ـ إن دعوه إلى أمر رشد فإنه سيوافق، وكان هذا رأي المسلمين الغالب، وعندما وصل إلى الحديبية وعسكر فيها، التقى بُديل بن ورقاء وقال هذا الكلام على مسمعٍ من

المسلمين، ثم أعاده على عروة بن مسعود الثقفي، ولم نسمع أن أحدًا من الصحابة اعترض أو احتجَّ على مبدأ الهدنة بتاتًا.

ولقد انتبه الرسول ﷺ ثانيًا في بيعة الرضوان - حسب بعض الروايات - إلى أنه عندما التقى ألفًا وأربعمائة من أصحابه وبايعوه تحت الشجرة، كانت البيعة بيعةَ حرب، وبأنه إن حارب فسيحاربون معه. لكننا نجد بعد التدقيق في النصوص أن النبي ﷺ أول ما بويع بويعَ على بيعة الحرب و«وعلى ما في نفسه»، وقد بايعه الصحابة على ذلك.

وكان الاتفاق أنه إن كان هناك حربٌ فسوف يقاتلون معه، ولكن إن مضى اقتراح الهدنة وقبِلت به قريش فهم أيضًا يفوضونه بإتمام الأمر وإبرامه، وكان المقصود بقوله: «بايعوني على ما في نفسي»، أي أعطوني تفويضًا تامًّا إن حورِبنا نحارب، وإلَّا فالذي أراه مناسبًا سوف أقوم به، والتفويض الثاني تحت الشجرة في بيعة الرضوان هو إطلاقٌ تامٌّ للنبي ﷺ بأن يتصرف بالشأن الذي يراه مناسبًا نيابةً عن المسلمين جميعًا، وقد حدث ذلك.

ثالثًا، عندما التقى النبي والصحابة مع «سهيل بن عَمرو» و«مكرز بن حفص» و«حويطب بن عبد العزى» - وثلاثتهم جاءوا من قريش لمفاوضة النبي - وبدأ النقاش، لم يكن الاختلاف على مبدأ لقاء قريش للوصول إلى هدنة، ولم نجد من أصحاب رسول الله بما فيهم عمر رضي الله عنه من احتجَّ على مبدأ اللقاء، أو التفاوض في الخيمة مع العدو، ولكن حدث الخلاف على شكل ومناخ اللقاء وتفاصيله.

بمعنى أنهم عندما أرادوا الكتابة، وقال النبي ﷺ لعليٍّ: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: ما ندري من هو الرحمن

الرحيم، فنحن نكتب «باسمك اللهم»، فقال النبي لعليٍّ أن يكتب «باسمك اللهم»، والصحابة لم يعتادوا على فظاظة «سهيل بن عمرو» و«حويطب بن عبد العزى» و«مكرز بن حفص»، فغضبوا لأسلوبهم البذيء، لا سيما أن الصحابة لم يعرفوا في السنوات الست الماضية أسلوبًا آخر في التعامل مع هؤلاء إلَّا في ساحات القتال، فقد التقوا بهم في ميدان المعركة وقاتلوهم، وقد فعلوا ذلك قبلًا في ثلاث معارك رئيسة، والآن وقد ضعف شأنُ قريش وانكسرت شوكتُها، يريدون أن يفرضوا صياغاتٍ تُعَدُّ بالنسبة إلى المسلمين مُسَلَّمًا بها. فقد كان ذلك حقًّا شيئًا يدعو للغضب.

لكن النبي القائد بحنكته وسَعة أُفقه، لم ينسق وراء العواطف، بل كان تركيزه على الهدف الاستراتيجي الجوهري. فلم يَرَ الرسول ﷺ أن هذه الإشكالية الشكلية يمكن أن تطعن في جوهر ما يريد تحقيقه، وهو الوصول إلى هدنة تفتح الآفاق للإسلام في جزيرة العرب، وبسبب ذلك قال لعليٍّ اكتب فاحتجَّ بعضهم.

وفي مرحلة لاحقة، عندما قال: «هذا ما عاهد عليه محمدٌ رسول الله»، فرفض سهيل قائلًا: لو كنا نقول إنك رسول الله ما جئنا لنناقشك، فتكتب «هذا ما عاهد عليه محمد بن عبد الله»، فالنبي قال اكتب يا علي، فغضب الصحابة بمن فيهم عمر رضي الله عنه وقالوا: كيف؟ ألستَ برسول الله!

لكن القضية هي أنه محمد رسول الله، وهو أيضًا محمد بن عبد الله، وهذه إشكالية شكلية أخرى ليست جوهرية، ولم يَرَ النبي خلافًا في الخيمة على بنود الهدنة من حيث جوهرها، وإنما من حيثُ أشكالها والنصوص التي وضعت عليها.

أبو جندل وانفجار المشاعر

لكن على سبيل المثال، لم يحتجّ أحدٌ على بقية بنود الهدنة، مثل وقف القتال عشر سنين، وما احتجّ أحدٌ على نوعية حلف محمَّد والمنضوين في عهده ـ فكان له ذلك ـ وما احتجّ أحدٌ على أنه من جاءكم منَّا رددتموه ومن جاءنا منكم رددناه، ولكن احتدم الخلاف عاطفيًّا وانفعاليًّا عند وقوع حادثة «أبي جندل».

ولننظر إليها من هذا الباب، فأنت تجلس في خيمة تفاوض هؤلاء المشركين الأفظاظ على الوصول إلى هدنة، ثم يأتي رجل مسلم مظلوم هاربًا من بطش قريش، هو «أبو جندل»، ابن سهيل بن عمرو، رئيس وفد التفاوض القرشي، ويقول أبو جندل الذي يرسف في قيوده إنه كان في السجن منذ سنوات، وها قد أنجاه الله من المشركين، وجاء إلى إخوانه المسلمين.

لكن سهيل بن عمرو يحتجّ مطالبًا بإعادة ابنه إلى مكة؛ ذلك أن الاتفاق قد وقع مع المسلمين على عودة من جاء من مكة إلى المسلمين، وها قد جاءت اللحظة التي يُختبر فيها الاتفاق، وإن لم ينفذ هذا البند الآن فإن الاتفاق لاغٍ.

ويقول النبي ﷺ صحيح أننا اتفقنا، لكن الكتاب لم يكتب بعدُ، فيصرّ سهيل على أن الاتفاق وقع، والكتاب أمر شكليٌّ، ويحتدم الجدل.

ولقد تمَّ تعليق التفاوض بالفعل، وخرج الناس من الخيمة، وبدأ نقاش وجدل واسع بين المسلمين في أمر أبي جندل، وهو أمر ذو طبيعة عاطفية عالية المستوى، فكيف تتمُّ إعادة رجل يشهد أن لا إله إلا الله وقد فرَّ من السجن بسبب إيمانه.

كان النبي ﷺ حزينًا، وراجع «سهيل بن عمرو» مراتٍ كثيرة في أمر أبي جندل، لكنَّ سهيلًا أصرَّ على موقفه، ولوهلة كان اتفاق الحديبية على وشك أن ينهار تمامًا، إلَّا أن حلًّا توفيقيًّا قد جاء من جانب وفد قريش، والحل الذي قدَّمه «مكرز» و«حويطب» يقضي بأن يجيرا «أبا جندل»، فيدخل مكة في جوارهما وتحت حمايتهما، فلا يدخل السجن.

وكان في ذلك ما يمكن أن ينقذ الاتفاق ويحقِّق شيئًا من الانتصار الرمزي للمسلمين، رغم عدم كونه انتصارًا كاملًا، لكنه كان أفضل من عودة أبي جندل سجينًا، فعندها تمَّ الاتفاق، وعاد «أبو جندل» بشروط إقامة مخفَّفة.

وقبل أن يعود أبو جندل، تحدَّث إليه النبي ﷺ وأوعز إليه بفكرةٍ ضمنيةٍ ستكون سببًا في تحريره وتحرير كل المسلمين في مكة، فقال: يا «أبا جندل»، إن الله سيجعل لك ولإخوانك مخرجًا! فهنا أشار إليه بخطوة ومبادرة تكسر الحصار المكيَّ عليه وعلى غيره من المسلمين المضطهدين في مكة، وهو ما حدث عندما التقط «أبو جندل» الفكرة، فهرب إلى ساحل البحر الأحمر، وانضمَّ إليه عدد من الشباب الهاربين من قريش، وبدأوا يعترضون قوافل قريش، ولجأت قريش إلى النبي ﷺ تشتكي ذلك، وتطلب هي بنفسها إسقاط هذا البند، فيعود «أبو جندل» وأصحابه إلى المدينة.

فالقائد محمد عليه الصلاة والسلام يشاور أصحابه في القضايا ذات الطبيعة الاستراتيجية، ثم يتصرف هو بالقضايا ذات الطبيعة التنفيذية التي لا ينبغي أن يرجع في تفاصيلها إلى الناس

جميعًا. كما أن هناك جوانبَ ذات طبيعة سريَّة في بعض الأحيان، والتي ينبغي ألَّا يستشير فيها إلَّا أشخاصًا محدَّدين حتى لا تتسع الدائرة.

«العدل والحرية».. روحٌ جديدة لجيلٍ ينتصر

المسألة الثانية في موضوع القيادة هي حادثة جميلة ذكرتها مراتٍ سابقة، وتتجلَّى في استخدام النبي ﷺ في بدر أسلوبًا تراه قريش جديدًا في القتال، وهو أسلوب الصفوف. فقتال العرب كان يتجلَّى في أن الأبطال يتبارزون أولًا، ثم تشتبك المجموعتان، والذي يهرب أولًا هو الذي يخسر المعركة. وفي أغلب الأحيان، لم يكن الشخص الهارب يُتبَع، فحروب العرب لم تكن حروب استئصال. فعلى سبيل المثال، عندما تنظر إلى حروب الروم والفرس، فقد كانت هذه الأخيرة بشعةً تعجُّ بآلاف القتلى، لكن حروب العرب كانت مناوشاتٍ تستمر فترة قصيرة وتنتهي بهروب طرفٍ معيَّن من المعركة.

فحرب الفجار قبل الإسلام مثلًا، استمرت عشر سنين بين القبائل، وقُتلت فيها مجموعة بسيطة جدًّا؛ وذلك لأن القتل عند العرب مشكلة كبرى، فهو يستدعي الثأر والدماء، وليس من نفسية العربي أن يُسرف في الدماء، وإنما كان المطلوب أن تقيم لنفسك مكانةً بين القبائل والناس من خلال تسوية حساباتك مع الآخرين، ولم يكن الأصل في القتال الاستئصال، فهذا لم نعرفه في ثقافتنا العربية حتى في قديم الزمان. ومن ثَمَّ فلم يكن الاستئصال هو الأساس، وحرب داحس والغبراء لا تعدو أن تكون عبارة عن استثناءاتٍ مذمومةٍ بأعراف ذلك الزمن نفسه.

لم يكن العرب ميَّالين لسفك الدماء حتى لا يحدث اضطراب في السلم القبلي؛ لأن العربي لا ينسى دَمَ ابنِ قبيلته إن قُتِل، ولا بدَّ له أن يثأر حتى ولو بعد أجيالٍ من الزمان.

ففي حادثة بدر صفَّ ﷺ الصفوف، وبدأ يصحِّحها، وكان معه عصا (والعصا إن كانت قصيرة تُسمَّى القدح وإن كانت طويلة تُسمَّى المخصرة)، فكان عنده مخصرة يتكئ عليها، وعنده أيضًا قدح يحملها معه ويسوي الصفوف - مثل التي يحملها القادة العسكريون الآن. وكان هناك صحابي اسمه «سواد بن غزية»، وهو أنصاري من الخزرج - من أخوال جد النبي ﷺ - ولم يكن من سادة الأنصار، بل من عامتهم.

فوقف سواد أمام الصف غير ملتزمٍ به، فجاء النبي ﷺ بالقدح وردَّه به من بطنه آمرًا إياه بالاستواء في الصف، فقال «سواد»: يا رسول الله، لقد أوجعتني وقد بعثك الله بالعدل، فأريد أن أقتصَّ منك!

فتخيلوا المشهد: *الناس على وشك المواجهة العسكرية، والنبي ﷺ يريد أن يصفَّ الصفوف في اللحظات الأخيرة، والناس ينظرون إلى العدو من أمامهم ويستعدون للقتال، وهذه معركة وحالة جديَّة، وهذا قائد يتعامل مع الجند بتطبيق النظام، والجندي «سواد» يقول للقائد: أريد القصاص منك! فماذا يقول القائد؟*

لو حدث هذا في جيوشنا اليوم لأُخذ الجندي وحُبس؛ لأن دور القائد هو تقويم الصف، ولأن الجندية تقوم على الانضباط الكامل.

ثم انظر أيضًا إلى موقف بقية أصحاب النبي ﷺ ممَّن يسمعون ويرون الحادثة، فإنهم لم يهبوا للاعتداء على سواد أو قمعه

وإسكاته، ولم يتدخلوا في الأمر، فالجميع سكت، والنبي عليه الصلاة والسلام يردُّ بالموافقة؛ لأن مقتضيات العدل ينبغي أن تتحقَّق في كل زمن، وقد مثلها بأن كشف عن بطنه وقال له: استَقِدْ مني (أي اقتصّ). فيكبّ سواد على النبي ﷺ يقبّل بطنه، فيقول له النبي: يا سواد، ما دعاك لهذا؟ قال: «يا رسول الله، قد حضر ما ترى من أمر المعركة، وأخشى أن ألقى ربي فيها، فأردت أن يكون آخر العهد بالدنيا أن يمسَّ جلدي جلدك».

تُروى هذه القصة عادةً في سياق حبِّ أصحاب النبي له، وحُسن خلق النبي، لكن هذه الحادثة لا تدلُّ على حبِّ الصحابة لرسول الله فقط، ولكن تدلُّ أيضًا على طبيعة التربية التي تربَّى عليها أصحاب رسول الله، فقد تربوا على مبدأين هما: العدل والحرية، حتى مع القائد النبي، والدليل على ذلك أنهم لم يستهجنوا طلب سواد، ولم ينهروه، ويقولوا له لا يحقُّ لك أن تقول ما تقول لرسول الله، بل الجميع سكت؛ لأن الذي طلبه «سواد» هو ممارسة عملية للتعليمات النبوية التي زُرعت فيهم، والتي تجد جذورها في قيمة العدل.

ثانيًا، تدلُّ الحادثة على مبدأ الحرية، فكيف لرجلٍ أن يقول لقائده هذا؛ لأن المشهد لو انتهى قبل تقبيله لرسول الله لقلت إن هناك مسألتَيْن: أولاهما أنه طالب بالعدل وقد حصل عليه، وثانيًا أنه كان حرًّا ورأى الناس ذلك شيئًا طبيعيًّا.

ولذلك أريد أن أقول إن نجاح الفريق المؤسس الذي بناه الرسول ﷺ تجلَّى في إيمانه العميق بالعدل والحرية، وهذان العنصران بالإضافة إلى الشورى التي علَّم من خلالها أصحابه أن يكونوا شركاء في الأمر، جعلت منهم أُناسًا يتغلَّبون على قبائل أكبر عددًا، وأكثر نفوذًا وتأثيرًا.

لقد مثّل ذلك روحًا جديدةً اندفعت في دواخلهم، ثم تشكّلت على شكل عزيمة لا يستطيعُ أحدٌ من المشركين الذين لا يزالون يعيشون في عالم التقليد والطبقية والسؤدد والتفاخر بالأحساب والأنساب أن يفهمها، فانهزموا بذلك أمام جيلٍ شابٍ يحمل معاني الحرية والعدل والمسؤولية.

النبي وجهًا لوجه مع «عِقْد خديجة»

تتعلّق القصتان التاليتان بالحياة الشخصية للنبي (النبي الإنسان)، حيث كان في حياته الشخصية إنسانًا طبيعيًّا: يغضب من أزواجه أحيانًا ويرضى عنهنَّ أحيانًا أخرى، ويحبُّ أنواعًا من الطعام واللباس ولا يحبُّ أنواعًا أخرى، وهذا شيء طبيعي عند النبي ﷺ، وضرورة ذلك أنه بالنسبة إلينا قدوة وأُسوة، فكيف نقتدي بشخصٍ إن لم يشترك معنا في النوازع السيكولوجية للإنسان الطبيعي؟!

لو كانت كل شؤون النبي الشخصية بتسييرٍ من الوحي، فلن يستطيع الواحد منّا أن يتخذه أُسوةً؛ لأننا سنقول: رجل سدَّده الوحي. ولكننا نتخذه أُسوةً عندما نعلم أنه بشر مثلنا، يصيبه الفرح أحيانًا والحزن أحيانًا أخرى، ويرضى ويغضب، ويحبُّ ويكره، وكل ذلك تأكيدٌ على بشريته.

قصة حبٍّ في بيت النبوَّة

أودُّ أن أشير هنا أولًا إلى حادثة مؤثرة، هي قصةُ حبٍّ بين ابنته زينب وزوجها «أبي العاص بن الربيع»، وهي قصة غريبة وجميلة وبديعة تنُمُّ عن شخصية إنسانية راقية للنبي ﷺ، شخصية سبقت الثقافة القُرَشية والعربية التقليدية في جزيرة العرب.

إن ابنة النبي الكُبرى زينب - من خديجة ﵂ التي ولدت له جميع أبنائه إلَّا إبراهيم الذي وُلِد من مارية - كانت قد خُطبت إلى ابنِ خالتها «أبي العاص بن الربيع»، حيث كان وهو صغير يدخل بيت النبي عليه الصلاة والسلام عند خالته خديجة فعرف زينب، فلمَّا كبر وكبرتْ جاء وطلب يدها من النبي عليه الصلاة والسلام، وكان هذا قبل البعثة، فقام النبي واستشارها في ذلك.

فدخل على زينب وأخبرها أن ابنَ خالتها جاء يطلب يدها، فلمَّا رآها تبسَّمت علم أنها موافقة، فخرج النبي ﷺ ووافق. وتزوَّجت زينب أبا العاص، وعاشا في بيت حبٍّ ومودَّة، ورُزقا بولد وبنت هما: علي وأميمة، ثم نزلت الرسالة على النبي ﷺ، فأسلمت زينب مع خديجة وبقية آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام. وأخبرت زينب زوجها بأنها أسلمت، لكنه رفض أن يسلم معها ويفارق دينَ قومه، ولم يعترض على إسلامها، وهو من بني عبد شمس وأُمه كما قلنا هي هالة بنت خويلد من بني أسد. إلَّا أن حبَّه لزينب وحبَّها له جعل هذه الأخيرة تستأذن أن تبقى معه، فأذِنَ لها النبي ﷺ وبقيت مع أبي العاص، ثم هاجر النبي ﷺ وبقيت هي بمكة مع أبي العاص، حتى جاءت معركة بدر.

فلنا أن نتخيَّل الحالة النفسية للسيدة زينب ﵂ عندما يخرج زوجها أبو العاص في جيش قريشٍ لقتال والدها محمد رسول الله ﷺ. فكان الأمر في الحقيقة صعبًا عليها وعلى أبي العاص أيضًا، فهو كان يحبها ولم يكن رجلًا سيئًا في ذاته وطَبْعه، ولكن كانت نقطة ضعفه أنه لا يريد أن يُرى أو يقال إنه يتبع أصهاره.

والذي حدث بعد ذلك أنه وقع في الأَسْر مع من أُسِر من الكفار والمشركين في معركة بدر، وجيء به ضمن الأسرى. وقد

عرض حينها على النبي ﷺ الفداء للأسرى، فبعثت زينب رضي الله عنها مع أخ لأبي العاص بالفدية. والفدية تكون مالًا، يُدفَع المبلغ المطلوب ويُفَكّ الأسير، وتذهب الأموال إلى الذي أسر الرجل، فجيء بفدية زينب ملفوفة بقطعة من القماش، ووُضِعَت أمام النبي ﷺ، وقال حاملها: لقد أتيتك يا محمَّد بفدية أبي العاص، ولمَّا فتحوها وجدوا بداخلها قلادة، فعرف النبي ﷺ على الفور أنها قلادة خديجة، وكانت قد أهدتها لابنتها زينب يوم زواجها من أبي العاص.

لقد كانت حساسية الموقف وعاطفية المشهد مذهلةً، فالنبي ﷺ كان محبًّا لخديجة حُبًّا جمًّا، ولا نعرف أنه أحبَّ أحدًا مثلها رضي الله عنها، ولم يتزوج إلَّا بعد أن تُوفيَت، وكان يذكرها دائمًا، مما أزعج بعض نسائه اللواتي كنَّ يغرن منها.

وقد وُضِع النبي ﷺ وجهًا لوجهٍ مع عقد خديجة الذي أهدته لابنتها زينب في يوم زواجها من أبي العاص، وكأن زينب تقول حينها للنبي عليه السلام: إنك كما أحببت زوجك خديجة، أمي رضي الله عنها، فاليوم أنا أيضًا أحب زوجي ومستعدَّة أن أتبرع بأغلى ما لديَّ لأُطلق سراحه.

فدمعت عينا النبي ﷺ عندما نظر إلى العقد، وقال: هذا عِقدُ خديجة، وهنا فهم الصحابة حساسية الموقف بالنسبة إلى النبي ﷺ تجاه الأمر، وسكت برهةً، ثم قال لهم: إن أردتم فهذا حقكم. فهو أسير للدولة، وليس من حق النبي ﷺ أن يطلقه من دون إذنِ المسلمين، فقد كان حريصًا على العدل التامِّ؛ ولذلك لا يأخذ من الدولة ما ليس له بحقٍّ، وهذا الأسير للجيش والذين أسروه هم من ينبغي لهم أن يفكوا قيده. وقال: إن أردتم

أن تطلقوا سراحه وتردوا عليها قلادتها فافعلوا، فوافقوا وفعلوا ذلك.

وقال النبي ﷺ لأبي العاص يومَ أُطلق سراحه: «يا أبا العاص، إني قد أُمرت أن أُفرق بين المسلمات والمشركين، فإن رأيت فأرسل إليَّ بزينب، وقل لها ألَّا تفرط بعقد خديجة»، فوعد بأن يفعل. وهو ما حدث فعلًا بعد عودته لمكة، وقد أمر زينب بأن تتجهز ثم ذهبت مع أخيه، وكان النبي ﷺ قد أرسل رجلين ليصطحباها، وكان الأول هو زيد بن الحارثة ـ وهو من آل النبي، وكان سابقًا أقرب الناس له ولآله ـ ومعه رجلٌ من الأنصار، وكان ثالثهما أخا أبي العاص بن الربيع. فلمَّا خرجوا بها على جملٍ عرفته قريش، وكانت متأذيةً من معركة بدر؛ لأنهم قُتلوا فيها، فلمَّا رأوا أن بنت محمَّد ستخرج لمحمَّد، لحق بها اثنان من السفهاء وأسقطاها من الجمل، ويقال إنها كانت حاملًا فأسقطت ومرضت ثم عادت مرة ثانية إلى مكة.

وهنا تدخل أبو سفيان؛ لأنه زعيم بني عبد شمس، على الرغم من أن ابنه كان قد قُتل في بدر، وقُتل عمَّاه الاثنان: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، لكن أخلاق العرب حتى في الجاهلية كانت أسمى من أن تتعرض للنساء حتى وإن كانت ابنة محمَّد، فأعادها مرةً ثانيةً تحت حمايته حتى هدأ الناس.

مُسلمة في «مجتمعٍ حُر»

ثم تحركت زينب رضي الله عنها في إحدى الليالي والتحقت بالنبي ﷺ في المدينة. وكانت مع ابنتها أميمة وابنها عليّ، وكان الإسلام قد فرَّق بينها وبين زوجها، فجاء من يخطبها بعد انتهاء عدَّتها، ولكنها أبت

واستمرت على هذا الحال حتى العام السادس للهجرة (أي بعد أربع سنين).

وقد حدثت في العام السادس حادثة عجيبة، وهي أن أبا العاص بن الربيع كانت لديه قافلة باتجاه الشام تمَّت السيطرة عليها من إحدى سرايا المسلمين وصُودرت، وأُسِرَ من فيها، فهرب أبو العاص بن الربيع إلى المدينة، وذهب إلى زوجته السابقة زينب وقال لها بأنه قد هرب ويريد منها أن تجيره، فرحَّبت به بوصفه والد أبنائها.

وبعدما أنهى المسلمون صلاة الفجر ذلك الصباح، وقفت زينب وصاحت قائلةً: «يا معشر المسلمين، اعلموا أني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع»، وفوجئ النبي ﷺ ولم يكن يعرف بالأمر قبل تلك اللحظة، فنظر إلى أصحابه بعدما عرف صوتها فقال: «هل سمعتم ما سمعت؟»، قالوا: نعم سمعنا، قال: «والله لا علم لي بهذا»، ولكن طالما أنها قد طلبت الجوار والمسلمون يدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، فكل إنسانٍ بإمكانه أن يجير بغضِّ النظر هل كانت زينب أو غيرها، وبما أنها أجارته فقد قبِل النبي ﷺ جوارها.

وعادت إلى البيت ولحق بها النبي عليه الصلاة والسلام وقال لها أكرمي مثواه، مثوى أبي أولادك وابن خالتك، ولكن اعلمي أنه لا يجوز لك (بمعنى لا يجوز له أن يختلي بك؛ لأنه ليس زوجك). وهو ما حدث فعلًا، فقد مكث أيامًا وردَّ النبي ﷺ إليه أمواله، ثم عاد بعد ذلك إلى قريش، فسدَّد ديونه التي كانت للناس عليه من القافلة، ووقف عند الكعبة وقال: يا معشر قريش، هل بقي لأحدٍ منكم عليَّ دَين؟ قالوا: لا. فقال: اعلموا أني قد أسلمت، وأشهد

أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله ما أردتُ أن أُسلم حتى لا تقولوا أسلم ليأخذ أموالنا. ثم عاد مسلمًا إلى النبي ﷺ وقال له: أريدك أن تردني إلى زينب. وقد حدث ذلك؛ إذ أخذ النبي ﷺ بيده إلى زينب، ففرحت فرحًا عظيمًا والتأم شملهما.

ولكن للأسف الشديد توفيت رضي الله عنها بعد عام من هذه الواقعة، وحزن عليها أبو العاص حزنًا شديدًا، وحزن عليها النبي والمسلمون جميعًا، لكن حزن أبي العاص لم يكن طبيعيًا لدرجة أن النبي حاول عدَّة مرات أن يهدئ من روعهِ، فكان يبكي باستمرار ويقول: والله يا رسول الله لا تطيبُ ليَ الحياة بعدها، وبقي على حالهِ عامًا، ثم توفي هو أيضًا رحمهُ الله تعالى ورضي عنه.

وهذه القصة من أجمل القصص التي تعطيك في تفاصيلها أمرًا في غاية الأهمية، وهو أن هذا النبي الذي هو قائد المسلمين لم تكن لتأتي ابنته إليه لأنه رسول الله، بل فهمت أن من حقها كمسلمة في مجتمعٍ حُر فيه القواعد معروفة، أن تأتي إلى المسجد وتجير رجلًا.

ثم إنَّ حبَّها لأبي العاص لم يكن سرًّا، ولكنه كان ملتزمًا بضوابط الشرع والدين، حتى أسلم بعد أن صبرت وعاد إليها، وكان النبي ﷺ يمتدحهُ، فقال لزينب أمام صحابته: إنه صهر ما علمتُ منه إلَّا خيرًا، وكانت المشكلة أنه تبع قومه، فلمَّا أسلم عاد إليها مرةً ثانيةً.

كيف واجه النبي «حلفَ نسائه»؟

هناك إشارةٌ أخرى مهمَّة في حياة النبي الشخصية، تتمثَّل في كيفية التعامل مع الزوجة. فالحياة الزوجية عادةً لا تكون مليئةً بكل

صنوف المودَّة والمحبَّة والحياة الهانئة السعيدة على الدوام، فالأزواج جميعًا - رجالًا ونساءً - يمرون بحالاتٍ كتلك التي مرَّ بها النبي ﷺ في حياته الشخصية.

فكان عليه الصلاة والسلام يغضب أحيانًا من بعض أزواجه، حيث كنَّ يغَرن ويقُمنَ بأفعال لا تسرُّ النبي ﷺ، لكنه كان يتفهم ويصبر عليهنَّ، ولا يسارع إلى هجرهنَّ في حال غضبت إحداهُنَّ وقامت بتصرُّف لا يعجبه.

لكن عندما وصل الأمر في السنة التاسعة إلى أن اجتمعت نساؤه التسع حوله وقُلن له نريد أن توسع علينا في النفقة، كان له آنذاك تصرُّف شديد الحزم.

فدعونا نفهم القصة في سياقها؛ إذ إن السنة آنذاك كانت السنة التاسعة، أي بعد غزوة تبوك، وفتوح الإسلام في الجزيرة اكتملت، وعوائد خيبر على المدينة المنورة كانت ضخمةً، وكان للنبي ﷺ الحقُّ في الخُمس، وحياة المسلمين تطورت بعد أن كانوا جميعًا في حالة من الضيق.

وكان لأصحاب الرسول ﷺ بيوت ومزارع، وقد بنى عبد الرحمن بن عوف بيتًا جميلًا وكبيرًا، وكذلك عثمان بن عفان وغيرهما، لكن النبي ﷺ آثَرَ حياة الزهد، وحافظ على الحجرات ذوات المساحات الصغيرة، ولم يكن يصرف من الخُمس على آل بيته إلَّا ما هو ضروري لإبقاء الإنسان في الحدِّ الأدنى من الحياة الكريمة، دون أي نوع من الإسراف، أو التبذير، أو الشعور بأنه من طبقة تختلف عن عامَّة المسلمين.

وكانت هذه سيرة النبي ﷺ في خاصَّة بيته، ولم يفرض التقشُّف على كبار صحابته، فقد كان عثمان رضي الله عنه غنيًا - وهو صهر النبي ﷺ،

تزوَّج ابنتَيْن من بناته وكان من أثرياء المسلمين ـ ولم يطلب منه النبي ﷺ التخلي عن رغد العيش، وكان عبد الرحمن بن عوف غنيًا ولم يقل له النبي إن عليه أن يصبح فقيرًا، ولم يتدخل في هذا الأمر، بل حثَّهم على امتلاك أدوات الإنتاج والتجارة من دون إسراف ولا تبذير.

لكن بالنسبة إلى النبي ﷺ، فالأمر مختلف. فهو قدوة، ولا يصحُّ أن يترفع اقتصاديًا وماديًا على الطبقة العامَّة التي ينتمي لها غالب المسلمين، وإلَّا فكيف يكون أُسوةً لهم؟ وتقتضي هذه الأسوة أن يكون مستواه الحياتي ليس بعيدًا عن مستوى عامَّة الناس.

فلمَّا جاءت النساء التسع ـ أمهات المؤمنين ـ وطالبنَ بمستوى أعلى من العيش، فهنَّ بذلك يدفعن النبي ﷺ خارج الحدود التي تقتضيها وظيفته النبوية، وهذا لا يليق بالنبي ﷺ. صحيح أن لديه الخُمس، لكنه خمس الدولة، يأخذ منه ما يكفيه من دون أن يأخذ منه ليصبح ثريًا، وكان يعيش بموازاة أغنياء المسلمين؛ ولذلك غضب النبي ﷺ في هذه الحادثة، وهو غضب مُبرَّر.

فهنَّ الآن يطلبن شيئًا يضرُّ بطبيعة رسالته، وقد كانت هذه طبيعة النبي ﷺ التي فُطِرَ عليها. ولا ينبغي له أن يساير زوجاته في هذا، وقد سايرهنَّ في أشياء كثيرة لا تضرُّ بجوهر مكانته بوصفه نبيًا في أوساط المسلمين.

ولهذا هجرَ النبي ﷺ زوجاته شهرًا، وأقسم أنه لن يأتيهنَّ. وكان النبي ﷺ في مشربية أو مشربة (وهي عبارة عن حجرة صغيرة تكون غالبًا في طابقٍ ثانٍ أو مرتفعة عن الأرض، وتُستخدم عادةً مخزنًا للحبوب والأشياء التي تحتاج إلى التخزين)، فأخذ النبي ﷺ حصيرًا وذهب إلى هذه المشربة، وبدأ ينام فيها، يذهب إلى المسجد

يصلي بالناس ثم يعود إليها، ويجلس معظم وقته فيها، خاصةً في الأيام الأولى.

وقد ضجَّ خبرٌ في المدينة بأن الرسول قد طلَّق زوجاته، مما أصاب المسلمين بالغمِّ، وأكثر من اغتمَّ هما عمر وأبو بكر ﵄، فأبو بكر والد عائشة وعمر والد حفصة، والوقائع بالمناسبة تدلُّ على أن عائشة وحفصة تحديدًا كانتا هما مَنْ حرَّضتا النساء الأخريات، فكان بينهما حلفٌ، وكانتا متفاهمتين مع بعضهما، ويقال إن معهما أُم سلمة وهي زوجة النبي ﷺ، التي تزوجها في المدينة بعد أن توفي زوجها، وكان لديها أربعة أبناء، وكانت من أجمل النساء لدرجة أن عائشة وحفصة في البداية غارتا منها كثيرًا. وتوجد قصص في هذا الأمر، لكن غالب الظن أنهنَّ في النهاية اتفقن وشكَّلن ما يشبه الحلف.

واجتمعت كل النساء حولهنَّ وذهبن إلى النبي ﷺ كحلفٍ مشتركٍ، ولم تُذكر واقعة تدلُّ على اتفاقهنَّ جميعًا من قبل، فغالبًا ما يكون هناك غَيرة. ولكن في هذا الموقف اتفقن، وهو ما أغضب النبي ﷺ؛ لأنهنَّ طالبن بشيء لا يقدِر عليه ولا يستطيعه، لا بسبب عدم استطاعته على الحصول على المال، ولكن بسبب تعارض المسألة مع كونه نبيًا لعموم المسلمين.

فجاء عمر ﵁ إلى عائشة، وقال: يا عائشة، أبلغَ منك أن تغضبي رسول الله؟ فقد كان شديدًا ولا يتهاون في حبِّ النبي ﷺ، وقد استاء من هذه الواقعة، فقالت عائشة: يا ابن الخطاب، اذهب عني. فذهب. ثم ذهب إلى أُم سلمة، وأُم سلمة هي بنت خال عمر، وقال: يا أُم سلمة، طلقكنَّ رسول الله فما السبب؟ وكانت أُم سلمة أشدَّ النساء قسوةً عليه، فقالت: «يا عمر، لقد دخلت في كل

شيء، والآن تريد أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟». فخرج عنها ذاهبًا إلى ابنته حفصة، وكان غاضبًا جدًا وسألها عن سبب الطلاق، وعن تحذيره لها ألَّا تُغضب النبي ﷺ، فبكَت.

ثم ذهب بنفسه إلى النبي ﷺ في المشربة، وكان النبي ﷺ معتزلًا، فأصرَّ عمر على مقابلة النبي من خلال عدَّة نداءاتٍ عبر خادم النبي، وكان اسمه رباح، فقال: يا رباح، استأذن لي على رسول الله. فلم يتحرك رباح من موضعه، لتعليماتٍ من النبي بعدم السماح لأحدٍ، فرفع عمر صوته وقال: أخبر رسول الله بأنني أريد أن ألقاه، «ووالله ما جئت من أجل حفصة، ووالله لو أمرني رسول الله أن أضرب عنقها لفعلت».

فطلب النبي ﷺ من رباح أن يدخله، فجلس عمر مع النبي ﷺ وكان مضطجعًا على الحصير، وكان هذا في السنة التاسعة التي بدأت المدينة تدخل فيها عهد الثراء والوفرة، والنبي ﷺ يجلس على حصيرٍ يؤثر في جَنبه الكريم، ولمَّا نظر عمر إلى الخزانة في الغرفة لم يَرَ فيها إلَّا صاعًا من شعيرٍ كان يأكل منه النبي ﷺ.

فبكى عمر رضي الله عنه، فقال له الرسول: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله، كسرى وقيصر في قصورهما وأنت في هذا الوضع، فقال النبي ﷺ: «يا عمر لهم الدنيا ولنا الآخرة».

فقال عمر: يا رسول الله، هل طلَّقت أزواجك؟ فقال: لا.

فبدأ عمر بمحاولة إخراج النبي ﷺ من هذا الجوِّ بحديثه عن زوجته شاكيا له، فقال للنبي ﷺ: لقد جئت من عندها وجادلتني في موضوع النفقة، فقال النبي ﷺ: هذا ما حدث معي أنا أيضًا، فتبسم النبي ﷺ وبدأ عمر يتكلم معه قليلًا حتى انفرجت أساريره ﷺ، ودخل في جوٍّ آخر مختلفٍ.

إن الحديث هنا عن محمَّد الإنسان، الذي يتحدَّث مع صاحبه ويفضي إليه بهمومه، وكان ذلك نقاشًا في غاية الإنسانية الطبيعية، يتحاوران فيه عن واقعٍ يعاني منه كلاهما ويتبادلان الشكوى من واقع حالهما مع أزواجهما، فقال عمر بعد ذلك: إن المسلمين مغتمون من هذا الأمر، فهل تسمح لي أن أخبرهم أن النبي لم يطلق زوجاته، فقال له النبي ﷺ: افعل ما بدا لك، فذهب إليهم عمر وأخبرهم بالأمر.

وفي اليوم التاسع والعشرين خرج النبي ﷺ من مشربته وعاد إلى زوجاته، ونزلت حينها الآية التي تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

فكانت الآيتان توجيهًا إليه بتخييرهنَّ، فإن أردن الدنيا منحهم ما يردن ويطلقهنَّ، وفي حال أردن الله والدار الآخرة فليصبرن مع النبي ﷺ. فذهب النبي إلى عائشة وقال: إني أُمرت أن أخيّرك، وتَلَا عليها الآية، وقال لها أن تذهب لاستشارة أبيها وأمها، فقالت: يا رسول الله، أفيك أستشير؟ إنما أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فذهب بعد ذلك إلى زوجاته الأخريات، وكلهنَّ قلن كما قالت عائشة، وهكذا استقرَّ بيت النبوَّة على هذا الأمر، وانتهت الأزمة.

وأريد أن أختم بالقول: إن الرحمة في قلب النبي ﷺ عامَّة، ولكل شخصٍ تصرفات تتمُّ وَفق معنى عظيم، والنبي ﷺ أُسوة وقدوة للجميع، وكان يقوم مقام الإنسان في حياته الشخصية، ومقام القائد في أمته، وكان يقوم قبل كل ذلك بالطبع بمقام النبي الذي يبلغ عن الله ﷻ رسالته.

فأنت كزوجٍ تستطيع الاقتداء به، وكسياسيٍّ يمكنك ذلك، وكإنسانٍ تمارس الحياة العامَّة يمكنك الاقتداء به في كل مناحي حياتك. فتصرفات النبي ﷺ تعود جميعًا إلى رحمته ورحمة الله بنا من خلاله. وقبل أن يكون نبيًّا خاتمًا، كان إنسانًا بشرًا.

والبشرية للنبي ﷺ أكَّدها القرآن مرارًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]. فنحن نحبُّ النبي ﷺ، ليس حبًّا عاطفيًّا فحسب، بل لأنه علَّمنا أشياء كثيرة، وترك لنا منهجًا نسيِّر به كلَّ أمورنا.

كُتِبَت فصول هذا الكتاب والعالم يعبر لحظة انتقال عصيبة؛ فيها تخوض البشرية جائحة كورونا، وتعيش أزمة اقتصادية، وتشهد تغيّرًا استراتيجيًا في موازين القوة بين الغرب والشرق، وما يرافقه من تدافع وتطاحن، وتصاعد خطاب اليمين المتطرّف، وما يرافقه من خطاب كراهية يطال الإسلام ورموزه في دول أوروبية، أما واقعنا العربي فيزيده التشرذم بؤسًا وضياع أمل.

هذه اللحظة تمثّل نهاية حقبة التسيّد الغربي، فتتسارع هجرة الناس فيها صوبَ أفق جديد في المستقبل، أولى بوادر انبعاثه هي القلق المعرفي، لذلك بات ضروريًا أن نستنفر مخزوننا المعرفي وأن نتحرّر من القيود التي كبّلْنا بها عقولَنا في أزمنة الضعف والعجز والخوف.

هنا ندق باب المعلم الأول، باب خاتم النبيين ورسول الناس كافة، فنلتمس في ثنايا سيرته ما يعيننا على تصوّر كل جديد متبعين منهجه العابر للزمن والمتجاوز للوقائع. هذا الكتاب هو جولة في الواقع وفي المنهج: الواقع الذي أوصلنا إلى هذه اللحظة التاريخية، والمنهج الذي قدّمه لنا آخر رسل السماء إلى الأرض.

الثمن: ٦ دولارات
أو ما يعادلها


ISBN 978-614-431-755-6

